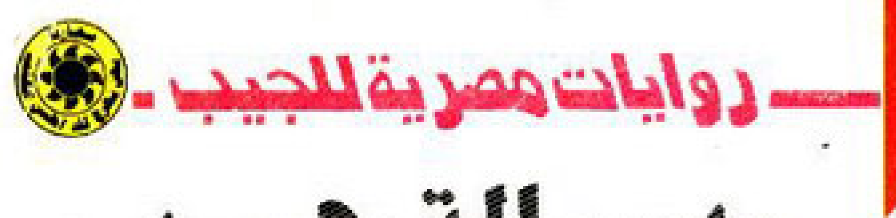




رسالة حب

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رسالة حب

عندما يخفت الضوء فى أفق الغروب
حينما يعمد قرص الشمس إلى الهروب
أكون وحيداً ضائعاً بين الدروب
أخط إليك خطاب حب لا يذوب
أروى لك آهات قلب لا يتوب
فاقرئى واسمعى منى .. يا فاتنة القلوب

(نبيل)

حبيبتى (لينا) ..

اغفرى لى مخاطبتك بهذا اللقب ، على الرغم من أنك لا تعلمين حتى اسمى ..

لقد حاولت فى البداية أن أبدأ خطابى بلقب عزيزتى ، أو صديقتى ، ولكنى لم أنجح ..

وجدت قلمى يخط كلمة حبيبتى ، متحدياً كل محاولاتى لاختيار نداء آخر ..

اغفرى لى ، فقلبى هو الذى يكتب إليك هذه الرسالة لا أنا ..

وهو يصرُّ على مخاطبتك بلقب حبيبتى ..

ستتساءلين فى البداية : من أنا ؟..

ستأخذك الحيرة مع بداية الخطاب ، ومع اللقب الذى أستهله به ..

ربما أغضبك استخدامى للقب ..

ربما تصوَّرت أننى شاب عابث ، أو مراهق فى العقد الثانى من عمره ..

هل تريدين معرفة من أنا ؟..

يكفيك أن تفتحى نافذة حجرتك ، وتنظرى إلى الحجرة المقابلة لنافذتك ، عبر الشارع الذى نقيم فيه معاً ..

سيطالعك أول ما يطالعك فى تلك الحجرة ، صورة كبيرة ، لشاب مفتول العضلات ، يبدو مزهوًّا فى زى رياضى أنيق ، وقد امتلأت ملامحه بالحيوية والنشاط والسعادة ..

هذا الشاب هو أنا ..

تلك الكئوس اللامعة المتراصة ، فوق ذلك الرَّف ، الكبير أسفل الصورة ، هى جوائزى ، نلتها عن تفوُّق فى مباريات مختلفة ، اعترافاً بمهارتى فى لعبة الجودو ..

باستثناء الصورة والكئوس ، ستبدو لك حجرتى عادية ، كحجرة أى شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ..

ربما طالعتك تلك الحجرة مئات المرات ، كلما فتحت نافذة حجرتك فى الصباح ..

وربما لم تنتبهى لها قط ..

ولكنها هناك دائماً ، منذ انتقلت عائلتك إلى هذا المنزل الأنيق ، الذى ما زلتم تعيشون فيه حتى الآن ..

فى ذلك الحين جذبنى إليك جمالك النادر الهادئ فقط .

كنت يومها شديد الغرور ، بعد أن أجمع الكل على أننى وسيم الملامح ، حلو القسمات ..

كنت أسير مختالاً كطاوُس ، مزهوًّا بوسامتى ، وجسدى الرياضى الممشوق ..

ورأيتك وأنت تهبطين من سيارة والدك ، وتصعدين لأول مرَّة إلى منزلكم الجديد ..

يومها هتفت من أعماق :

- أريد هذه الفتاة .

كنت أظنك يومها واحدة من الفتيات ، اللاتى تبهرهن الوسامة ، والشهرة ، حيث كانت صورتى تحتل دائماً مكاناً بارزاً ، فى الصفحات الرياضية للصحف ..

ولكننى اكتشفت أنك فتاة رصينة مهذبة ..

كم أسعدنى هذا الكشف ؟..

كم بعث فى قلبى الارتياح والسعادة ؟..

يومذاك اتخذت أفكارى نحوك اتجاهاً جديداً ..

أصبحت أتمناك زوجة ، تملأ حياتى سعادة ، واستقراراً ..

ولكن واقع الحياة صدمنى بحقيقة غابت عن ذهنى طويلا ..

صحيح أننى كنت فى عالم الرياضة شخصية بارزة ، شهيرة ، ولكننى فى عالم المال مجرَّد موظف صغير فى الشئون الاجتماعية ، أتقاضى مرتباً لا يكفى حتى ثمناً لوقود تلك السيارة الأنيقة ، التى تقودينها دائماً ، فى طريقك إلى الجامعة ..

كم حزنت عندما تكشفت لى هذه الحقيقة المؤلمة ، فى عالم لم يعد يعترف إلا بالمال ، وبكل ما تستطيع أن تفعله الثروة ..

كم أصابتنى خيبة الأمل ، حينما بدأت عيناى ترى الحياة ، على نحو مختلف ..

كانت بطولاتى ، ونظرات الإعجاب فى عيون الآخرين تكفينى فى الماضى ، حتى أننى لم أكن أفكر فى المرتب الضئيل الذى أتقاضاه فى عملى ، ولكن فكرة الزواج جعلتنى أنتبه إلى عمرى الضائع ..

يومها أصابنى الاكتئاب ، وفقدت زهوى ، وخيلائى ..

أصبحت أذهب إلى عملى عابساً ، وأذهب إلى تدريباتى أشد عبوساً ..

كرهت ذلك الحاجز المادى ، الذى حال بيننا ..

لم أعد أشعر بالفخر لأننى بطل ..

أصبحت أشعر بالعار لأننى فقير ..

أصبحت أقضى معظم وقتى جالساً أمام نافذة حجرتى ..

وكانت عيناى دائماً معلقتين بنافذة حجرتك ..

حتى وهى مغلقة ..

كنت أراك دائماً بخيالى ، وأنت منكبة على مذاكرتك ..

وأنت تجلسين أمام تلك المرآة الكبيرة ، التى تواجه نافذتك ..

وأنت تصففين شعرك الكستنائى الجميل ..

كم خفق قلبى ، وأنت تفتحين نافذة حجرتك فى الصباح ..

كنت أشعر بنبضاته ترتفع ، وتتحوَّل إلى زغاريد

فرحة ، وأنا أتأمل وجهك الرقيق الأبيض البشرة ، وعينيك الحالمتين ، العسليتى اللون ، وفمك الصغير ذا الشفتين الرقيقتين ..

كان كل ما فيك رقيقاً أنيقاً ..

حتى مرحك ، الذى كنت أراقبه فى لهفة وسعادة ، وأنت تمزحين مع شقيقتك ، أو والدتك فى حجرتك ..

كانت أسعد لحظات حياتى ، هى تلك التى تكون فيها نافذتك مفتوحة ..

هل تصدقين أننى أحفظ تفاصيل حجرتك عن ظهر قلب ؟..

حتى تلك الصورة الكبيرة ، لذلك المطرب الأوربى حالم العينين ، والتى تزين حجرتك ، وتشف عن روح مراهقة ، لم تفارق قلبك بعد ، على الرغم من سنوات عمرك العشرين ..

ومن عجب ، على الرغم من مواجهة نافذة كل منا للآخر ، أنك لم ترفعى عينيك يوماً إلى نافذتى .. فى وجودى على الأقل ..

من العجيب هذا ، برغم أننى كنت أشعر أننا روح واحدة ..

كان مرحك يسعدنى ، وقلقك يحزننى ..

كانت مشاعرنا تتفق دون أن نلتقى ..

وأدمنت الجلوس أمام النافذة ..

والدتى نفسها لاحظت أننى لم أعد أميل لمغادرة المنزل كالسابق ..

لاحظت أننى أقضى معظم وقتى وحيداً فى حجرتى ..

إنها لم تصارحنى بذلك ، ولكننى أفهمها جيداً ..

منذ وفاة والدى وأنا أفهم كل انفعال فى نفسها ..

كنت أشعر دائماً أنك مثلها ..

رقيقة ، حانية ، عطوف ..

كنت أقضى وقتى كله أمام النافذة ، حتى فى ذلك اليوم ، الذى رأيت فيه شاباً وسيماً ، يوقف سيارته الأنيقة أمام منزلكم ..

كانت هذه هى المرة الأولى ، التى أراه فيها فى حينا .. ولكن مرآه أثار فى نفسى قلقاً عجيباً ، عنيفاً ..

حاولت أن أقنع نفسى ، أنه يستهدف واحـدة من شقق عمارتكم الأخرى ، ولكن هاجساً فى نفسى أنبأنى ، أنه يتجه إلى شقتكم مباشرة ..

حاولت أن أمنى نفسى ، أنه قريب لكم ، ولكن أناقته المفرطة ، أوحت لى بغير ذلك ..

وتحققت هواجسى ، عنـدما انطلقت من منزلـكم زغرودة ، مزقت نياط قلبى ..

انتابنى – يومئذ – ذعر عجيب ، فقفزت من مقعدى وأخذت أدور فى حجرتى كالليث الجريح ، وأنا أنتفض فى غضب ، وقهر ..

قلت : إنه ربما كانت شقيقتك هى المقصودة ..

ربما كانت زغرودة نجاحك ..

ولكن آمالى تحطمت ، عنـدما رأيتك تهرعين إلى حجرتك ، وحمرة الخجل تغطى وجهك ، ورأيت أمك تلحق بك ، وتحتضنك فى سعادة ..

كانت فرحتها تبدو واضحة فى صوتها المرتفع ، الذى مزّق أذنى ، وهى تهتف فى سرور :

ـ ألف مبروك يا (لينا) .

فوجئت يومها بما حدث ..

فوجئت بأنها المرة الأولى التى أعرف فيها اسمك ..

كان جمالك ورقتك قد أخفيا عنى اسمك ..

ليتنى ما عرفته ..

ليته ما تسلل إلى أذنى فى اللحظة نفسها ، التى ذقت فيها عذاب فراقك ..

يومها حاولت أن أبكى ، ولكننى لم أنجح ..

حاولت أن ألقى بنفسى من النافذة ، ولكن الإيمان بالله فى أعماقى منعنى من ذلك ..

اكتفيت بالجلوس مصدوماً ، مشدوهاً أمام النافذة ..

فقدت فى لحظة واحدة أحلام عمر بأكمله ..

لست أدرى لم هزّتنى الصدمة من أعماق هكذا ..

إن قلبى لم يكن يحمل أدنى أمل فى أن أتزوّجك ، وعلى الرغم من هذا صدمت ..

لقـد قضيت ليلتى – يومئذ – كأبشع ما تكون الليالى ..

لم أذق طعم النوم لحظة واحدة ..

ظلت الزغرودة التى أطلقتها أمك تتردد فى أذنى ، تذكرنى فى كل لحظة أننى فقدتك ..

ولكننى لم أتوقف عن الجلوس أمام النافذة ..

ظللت هناك أراقبك دوماً ، وأنت تعدين ثياب عرسك ..

كنت أرى ذلك الغريم الوسيم ، الذى انتزعك من أحلامى ، وهو يحضر لزيارتكم يوميًّا ..

فى كل مرة كان يرتدى حُلَّة جديدة أنيقة ..

كم لعنت الفقر ، وأنا أحاول حساب ثمن هذه الأثواب الفاخرة ..

كنت أكره خطيبك هذا ..

أبغضه من كل قلبى ..

فكرت يوماً فى أن أتحرَّش به ، وأشتبك معه فى مشاجرة ، أفرغ فيها كل عذابى ومقتى ..

فكرت أن أضربه ، حتى أمزِّق حُلَّته الباهظة الثمن ، أو أشوه ملامحه الوسيمة المتغطرسة ، ولكن شيئين منعانى ..

أولهما : طبيعتى ، التى تمقت العنف ، على الرغم من

البطولات التى أحرزتها فى واحدة من أشهر رياضات الدفاع عن النفس ..

وثانيهما : أننى خشيت أن يحزنك هذا ..

احتملت كل العذاب ، الذى يسببه لى مرآكما معاً ، من أجلك ..

كنت أتمزَّق وأنا أراك ترافقينه فى نزهاتكما ..

كانت أعماقى تبكى ، وأنت تتأبطين ذراعه ..

ولكننى احتملت ..

كان عزائى الوحيد هو تلك السعادة ، التى تبدو فى محياك وأنت معه ..

أردت لك السعادة ، حتى ولو مع رجل آخر ..

احتملت كل شىء ، حتى كان ذلك اليوم ، الذى رأيت فيه الأنوار الملونة ، تزين شرفة منزلكم ..

ذلك اليوم الذى علمت فيه أننى لم أعد أمتلك أى حق فيك ..

حتى فى أحلامى ..

كانت تلك هى ليلة زفافك ..

* * *

٢ ـ عذاب قلب ..

حبيبتى (لينا) ..

اعذرينى لتوقفى عن الكتابة عند هذه النقطة ..

لم أكد أذكر تلك الليلة حتى راودتنى المشاعر ذاتها، التى مزّقتنى ليلتها ..

لم أكن ـ ليلتها ـ أحتمل الفكرة ..

فكرة أن تكونى لرجل آخر ، جسداً وروحاً ..

ولكن هـذا الرجـل كان زوجك ، وكل الزوجة لزوجها حلالاً طيباً ..

ولكننى كنت أتعذب ..

وصلتنا فى تلك الليلة بطاقة أنيقة ، فاخرة ، هى دعوة زفافك ..

يومها أطلقت والدتى زغرودة ، جعلت عينى تدوران فى محجريهما ..

لم تكن تعلم أنها تنعى حبى بزغرودتها ..

لم تكن تعلم أن ابنهـا الوحيـد يتمزّق ، ويحترق فى هـذه الليلة ..

ارتدت شقيقتى الوحيـدة ثوباً أنيقاً ، تدخره لمثل تلك المناسبات ، وحاولت أمى إقناعى بالذهاب إلى حفل زفافك ..

كدت ـ يومها ـ أصرخ فى وجهها غضباً ..

كيف تطلب منى أن أراك فى ثوب الزفاف الأبيض، إلى جوار رجل آخر ؟..

كيف تطلب منى أن أرسم الابتسامة على وجهى ، وقلبى يدمى ألماً ؟..

رفضت يومها الذهاب فى إصرار ..

انتحلت أعـذاراً شتى ، حتى يئست أمى ، وتركتنى وحيداً ، لتذهب هى إلى زفافك مع شقيقتى ..

وجلست أمام النافذة ..

جلست واجماً ، أراقب نافذة حجرتك المغلقة ..

أسمع زغاريد الضيوف ، الذين امتلأت قلوبهم بالفرح ..

لست أدرى لِمَ تذكرت فى تلك الليلة الفنان الهولندى (فان جوخ) ، ذلك الذى قطع أذنه ، وأهـداها إلى حبيبته ..

شعرت ليلتها أننى أحترمه، وأقدره ، وأرفض فكرة الجنون التى ألصقوها به ..

ربما لأننى كنت أقطع قلبى فى تلك الليلة ، وأهديه لك ..

ربما لأننى كنت أرغب فى قطع أذنى، حتى لا أسمع صيحات الفرح ، التى تنتقل إلى حجرتى من منزلكم ..

وفجأة .. فتح أحدهم نافذة حجرتك ..

انتفضت فى حجرتى ، حينما وقع بصرى عليك فى ثوب الزفاف ..

رأيتك نصف دقيقة ، وهم يقودونك إلى خارج الحجرة ، لتلتقى بزوجك ..

نصف دقيقة لا تزال محفورة فى ذاكرتى حتى الآن ..

كنت رائعة الجمال ، خلابة ..

وزاد هذا من عذابى ..

أشحت بوجهى عن النافذة ، ودفنت عينىَّ فى كفى، حتى لا أراك تغادرين منزلك إلى منزل زوجك ..

لم أجرؤ على النظر حتى ابتعد صوت السيارات ،

التى تنقلك إلى ذلك الفندق الفاخر ، حيث يقام حفل زفافك ..

لحظتها انهارت مشاعرى كلها ، وتبلدت أحاسيسى دفعة واحدة ..

كنت كتمثال من الفولاذ ، لا روح له ..

قطعة من الصلب ، تخلو من المشاعر والأحاسيس ..

ظلت عيناى معلقتين بنافذة حجرتك طويلاً .. طويلاً ..

لم أشعر بمرور الوقت ، إلا عندما سمعت صوت باب شقتنا يُفتح ، وصوت أختى وهى تتحدث مع أمى فى لهجة تنم عن الانبهار الشديد ..

اندفعت أمى إلى حجرتى ، وصاحت فى حماس :

– لقد خسرت نصف عمرك ، لعدم حضورك الحفل يا (نادر) .. لقد كانت (لينا) كالبدر فى تمامه ..

أشحت بوجهى عنها ، وحاولت إخفاء الألم المرتسم على ملامحى ، ولكن شقيقتى لحقت بوالدتى إلى حجرتى ، وهتفت :

– زوجها أيضاً كان شديد الوسامة والأناقة .

لم ترحم إحداهما مشاعرى ، وقالت والدتى :

– إنها إنسانة رائعة ، وتستحق هذا الزوج الممتاز ..

كادت الدموع تتفجر من عينى ، فقلت محاولاً إنهاء الحديث :

– إننى جائع يا والدتى .

هتفت والدتى فى حنان :

– دقائق ، وأعدّ لك طعام العشاء يا ولدى .

أسرعت والدتى تعدّ لى طعام العشاء ، على حين جلست شقيقتى تصف لى حفل الزفاف فى انبهار ، فقاطعتها فى ألم :

– من الجميل دائماً أن يتزوّج شابان متحابان .

هزّت شقيقتى (لبنى) كتفيها ، وقالت :

– إنهما لم يكونا يوماً متحابين ، ولكنه زوج مناسب لها .

أدهشتنى عبارتها ، فسألتها فى لهفة :

– ماذا تعنين ؟

مطّت شفتيها ، وقالت :

– الزواج لا يقتضى بالضرورة وجود حبّ سابق يا (نادر) .. صحيح أن الفتاة – أى فتاة – تتمنى دائماً الزواج عن حبّ ، ولكنها عندما تفتقد ذلك ، فإنها تبحث فى هذه الحالة من بين من يتقدمون إليها عن الأفضل ، فتبدأ فى تقييمهم طبقاً لما يتميز به كل منهم ، وأعتقد أن (محمد) مناسب لـ (لينا) .

اسمه (محمد) إذن ؟..

لولا هذا الاسم الشريف الذى يحمله ، لكرهت حروفه كلها ..

ظللت صامتاً ، أحاول هضم منطق (لبنى) ، ثم قلت فى صوت متحشرج :

– هل تظنين ذلك ؟

أجابتنى فى ثقة :

– بالطبع .

وجدت نفسى يومها أهتف فى غضب :

- خطأ.. خطأ .. لا ينبغى لـ (لينا) أن تتزوَّج سوى رجل يحبها .. هذا خطأ ..

لم أشعر - يومئذ - بتلك الدمعة الساخنة ، التى انحدرت - دون وعى منى - على وجنتى ..

لم أشعر بها ، إلا عندما لمحت تلك النظرة الجزعة فى عينى (لبنى) ..

لقد اندفعت نحوى فجأة ، وهمست فى أسى :

- (نادر) .. هل .... ؟

لم تتم سؤالها ، ولكننى فهمت ما تعنيه ، فأطرقت برأسى ، وتركت لدموعى العنان ، وأنا أقول :

- نعم يا (لبنى) .. أحبها .. أحبها من أعماق قلبى .

شعرت بيدها الموضوعة فوق كتفى ترتعد ، فرفعت رأسى إليها ، واتضح لى أنها تشاركنى دموعى ، فهمست وأنا أربِّت على كفها :

- لا تحزنى من أجلى يا (لبنى) .. ما أنا إلا واحد من أبطال قصص الحبّ الفاشلة ، اليائسة فى هذا العالم ..

أغرورقت عيناها بالدموع ، وهمست :

- كل شىء نصيب يا (نادر) .

حاولت أن ابتسم وأنا أردِّد خلفها :

- نعم يا (لبنى) .. كل شىء نصيب .

أقول حاولت ، ولكننى أبداً لم أنجح ..

كانت الكآبة التى تملأ نفسى أقوى من أن أبتسم ..

كان هناك فى أعماقى حزن من نوع عجيب ..

حزن يبدو وكأنه يتسلل عبر شرايين جسدى ، إلى كل خلية من خلاياى ..

حزن تنبض به كل ذرَّة فى جسدى ..

حزن جعل الحياة فى نظرى بلا طعم ..

جعلت أقارن فى نفسى ، بينى وبين الرجل الذى أصبح زوجك ..

كادت المقارنة تودى بالبقية الباقية من عقلى ..

إنه وسيم أنيق ، وأنا مثله فى هذا ..

ولكنه ثرى ، وأنا فقير ..

وهنا تكمن المشكلة ..

ظل هذا الخاطر يعذبنى ، حتى وأنا ذاهب إلى عملى هذا الصباح ..

كنت أفكر فى هذا الحاجز المقيت ، الذى منعنى من الزواج منك ..

بدأت أسأل نفسى : ماذا لو أننى كنت غنيًّا ؟..
ترى هل كنت سأصبح زوجك ، بدلاً من (محمد) ؟
هل كنت سأنعم بقربك ، كما ينعم هو الآن ؟..
كنت أفكر فى هذا ، عندما سمعت صوتاً يسألنى :
ـ الأستاذ (نادر فهمى) .. أليس كذلك ؟
رفعت رأسى أتأمل محدثى فى دهشة ، ثم سألته :
ـ هل تعرفنى ؟
هتف فى حماس :
ـ ومن ذا الذى لا يعرف البطل (نادر فهمى) ؟
كدت أضحك فى سخرية ، وهو يصفنى بالبطل ..
أى بطل أنا بعد ما حدث ؟..

كنت أرى نفسى فى هذه اللحظة صورة كاريكاتورية لبطل سابق ..

كنت أرى نفسى مقهوراً مدحوراً بائساً ..
أجبته فى برود :
ـ وماذا تريد منى ؟
لاحظت لحظتها أنه رجل وقور أنيق ، وأنه يتحدث العربية بلهجة أبناء الخليج ، عندما قال فى جدّية ورصانة :
ـ أنا مدير تحرير مجلة الرياضة الكويتية ، ونحن نحتاج إليك الآن ..
حدّقت فى وجهه بدهشة ، وغمغمت :
ـ تحتاجون لى ؟
قال الرجل فى حماس :
ـ نعم .. نحن نحتاج لبطل مثلك ، لتحرير الباب الخاص برياضات الدفاع عن النفس ، وأنت خبير فى هذا المجال .
رددت وراءه فى دهشة :
ـ أنا ؟!
عاد يهتف بمزيد من الحماس :
ـ لقد قرأنا لك تعليقاً صغيراً فى الباب الرياضى ،

بإحدى الصحف المصرية ، ووجدنا فى أسلوبك جمالا ، ورونقاً نحتاجه ..

فررت بعينى منه ، وأنا أقول :

ـ لن يمكننى مغادرة القاهرة ..

هل تعلمين ماذا كان يمنعنى من مغادرة القاهرة ؟..

إنه أنت يا (لينا) ..

كنت أخشى أن أترك مصر ، فأعجز عن رؤيتك ..

أعجز عن نيل الشىء الوحيد الذى بقى لى فى الحياة ..

فوجئت بالرجل يقول فى حماس :

ـ أنت لا تحتاج لمغادرة القاهرة يا سيد (نادر) ، يمكنك أن تكتب مقالاتك هنا ، وسيتسلمها مندوبنا فى القاهرة .

ظهر التردُّد فى وجهى ، فتابع الرجل فى اهتمام :

ـ لا تتردَّد يا سيد (نادر) ، ثق أننا سنمنحك راتباً محترماً ، يفوق فى الأسبوع الواحد ، ما تتقاضاه فى عام كامل هنا ، ونحن لا نطالبك بترك عملك أيضاً .

يا لسخرية القدر !!

عشت عمرى كله محروماً من الثراء ، وفقدتك من أجل الفقر ، ثم هأنذا أضع قدمى على أول الطريق إلى المال صباح ليلة إعدامى ..

ماذا كان سيضير القدر ، لو أنه منحنى المال منذ شهر واحد ؟..

ربما كنت أحصل عليك يومئذ ..

ولكن القدر كان يريد لى العذاب ..

كان يريد أن يحرمنى منك ..

تذكرت لحظتها قول شقيقتى (لبنى) :

ـ كل شىء نصيب .

نعم .. كل شىء نصيب ..

نصيبى أن ينهار الحاجز بيننا بعد أن أفقدك ..

أن يسقط حاجز ، ويقام آخر ..

أخرجنى صوت الرجل من جحيم أفكارى ، وهو يقول :

ـ ماذا قلت ؟..

وجدت نفسى أهتف :

ـ إننى أقبل .

* * *

٣ – الآلام ..

حبيبتى (لينا) ..

لن يمكنك أن تتصوَّرى مدى فرح والدتى ، وشقيقتى عندما أخبرتهما بالأمر ..

لقد أطلقت والدتى وقتها زغرودة ، كان لها وقع مؤلم على أذنى ..

زغرودة ذكرتنى بليلة زفافك ..

تلك التى لم يمض عليها يوم واحد بعد ..

أطلقتها وهى تحتضننى فى سعادة ، وتهتف فى فرح :

– أنت تستحق كل خير يا ولدى .

تصوَّرى !.. والدتى تقول إننى أستحق كل خير !!

بعد أن فقدتك أحصل على كل خير !!

يا له من قدر !!

لقد استقبلت تهانئهما فى هـدوء ، ثم انسحبت إلى حجرتى ..

إلى حيث أرى نافذة حجرتك المغلقة ..

أرسلت أول مقالاتى ، وأنا أجلس أمام نافذتك ، وقرأتها ممهورة بتوقيعى فى المقعد نفسه ..

شهر كامل وأنا أقضى ليالىَّ أمام النافذة ..

أبحث عن وجهك فى خيالى ..

أدعو لك بالسعادة والهناءة فى حياتك ، إلى جوار الرجل الذى اخترته زوجاً ..

حتى رأيتكما ..

لم أصدِّق عينىَّ – يومئذ – عندما توقفت سيارة زوجك الأنيقة أسفل منزل والديك ، ورأيتكما تهبطـان منها ..

خفق قلبى ، واختلج بين ضـلوعى ، وأنا أرقب محياك ، بعد فراق شهر كامل ..

ولكن الجزع وجد طريقه إلى نبضات هذا القلب ، وامتلأ بالآلام ..

كان مبعث جزعى وآلامى ، هو ذلك الحزن العميق المحفور فى ملامحك ، وتلك الصرامة والقسوة فى عينى زوجك ..

لم يكن وجها كما يوحيان بسعادة زوجين بعد قضاء شهر العسل ..

ذلك الشهر الذى يقولون عنه إنه أجمل أيام العمر .. وجدت نفسى فجأة أشعر بكراهية شديدة لزوجك..

كرهته لأنه بعث الحزن فى وجهك ، الذى طالما رأيته مشرقاً باشاً ..

أخـذت أذرع حجرتى فى حزن وألم ، وأنا أحاول البحث عن سبب هذا الحزن ..

وفجأة .. رأيتك تفتحين النافذة ، فتوقفت مشاعرى كلها ، إلا من الحبّ ..

الحبّ وحده ..

هرعت إلى النافذة ، لأستزيد من بهائك ، فلمحت زوجك يغادر المنزل ، ويبتعد بسيارته ، على نحو يوحى بالغضب ، وعدت أرفع عينىّ إلى نافذتك ، فرأيتك تحادثين والدتك فى غضب ..

كانت كلماتك الغاضبة تعبر الشارع إلى أذنى ، ولم أستطع مقاومة لهفتى ، فأصغيت إلى حوارك مع أمك ..

كنت تقولين :

– لقد تبدّل تماماً يا أماه ، لم يعد هو الشخص نفسه الذى تزوّجته .. لم أكد أحيا إلى جواره ، حتى ألقى عن وجهه ذلك القناع الزائف من التهذيب والأناقة ، وتحوّل إلى إنسان مقيت ، يجد لذته فى إذلالى ، وإلقاء الكلمات الجارحة على مسامعى ، كما لو كنت خادمة حقيرة .

هتفت والدتك فى دهشة :

– إلى هـذا الحدّ ؟!

عدت تقولين فى ألم :

– إنه يتصوَّر أن السبب الوحيـد ، لموافقتى على الزواج منه هو ثراؤه ، ويظن أننى سأحتمل كل إهاناته من أجل ذلك .

حاولت والدتك التخفيف عنك ، فقالت فى حنان :

– ربمـا كان هناك ما يقلقه يا (لينا) .

صحت أنت فى غضب :

– فى شهر العسل يا أماه ؟!

عادت أمك تقول فى رأفة :

– إنه زوجك على أية حال .

سمعتك تهتفين فى إصرار :

– لست أريده يا أماه .

صرخت والدتك فى ذعر :

– (لينا) !.. ماذا تقولين ؟

عدت تهتفين فى مزيد من الإصرار :

– أريد الطلاق .

رأيت والدتك تحدّق فى وجهك بذعر ، ثم تسرع إلى خارج الحجرة ، دون أن تنبس ببنت شفة ..

كم آلمنى حزنك فى هذه اللحظة !!..

كانت مشاعرى حينئذ متناقضة ، عجيبة ..

كنت أشعر أن طلاقك قد يمنحنى الفرصة ، لتحقيق حلم حياتى بالزواج منك ، وكان هذا يسعدنى ، ولكننى كنت حزيناً فى الوقت نفسه لفشل حياتك الزوجية ..

أخذت أراقبك فى مزيج من الوله والحزن ، حتى رأيت والدتك تعود إلى حجرتك بصحبة والدك ، الذى سألك فى غضب :

– أى كلام أحمق هذا ، الذى ألقيته على مسامع والدتك ؟

سمعتك تقولين فى إصرار :

– إننى أريد الطلاق .

صرخ والدك فى غضب :

– أمجنونة أنت ؟.. هل تطلبين الطلاق بعد شهر واحد من زفافك ؟.. ماذا سيقول الناس ؟!

قلت فى عناد :

– فليقولوا ما يحلو لهم .

عاد والدك يصرخ :

– يبدو أنك لا تفهمين الدنيا ، هل تعلمين كيف ينظر الناس إلى امرأة مطلقة ؟ .. إنهم يمزّقونها بنظراتهم وأقوالهم دائماً .

امتلأت نفسى بالألم ، حينما ترقرقت فى عينيك دمعتان ، وسمعتك تقولين فى صوت هو أقرب إلى البكاء :

– النظرات والأقوال لا تدمى يا أبى ، ولكن حياتى مع (محمد) هى العذاب بعينه ، إننى أتمزق فى اليوم

الواحـد عشرات المرات .. أيرضيك أن تعيش ابنتك عمرها كله مهانة ، معذبة ؟.. هل يسعدك هذا ؟

كنت أعلم أن والدك لن يحتمل هذا القول ..

كنت أعلم ذلك ؛ لأننى لم أحتمله ..

وجدت نفسى أبكى لآلامك .

كم وددت لحظتها أن أجفـّف تلك الدموع ، التى انهمرت على وجنتيك بشفقى ..

كم وددت ذلك ؟..

ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ..

لقد زال غضب والدك ، حينما انهمرت دموع القهر والعذاب من عينيك ..

زال غضبه وهو يقول فى حنان :

– دعينا نحاول إصلاح الأمر على الأقل .

قلتِ له فى حزن :

– أنا رهن إشارتك يا والدى .

لم أدر يومها كم بكيت ، بعد أن غادر والداك حجرتك ، وتركاك وحيدة ..

لم أدر ؛ لأنك انتحيت ركناً من حجرتك ، لا تدركه عيناى ..

لم أدر ، ولكننى كنت واثقاً أنك تبكين ..

ربما لأنك تسكنين قلبى ، ولقـد كان ينبعث منه نحيب وبكاء ..

انتابنى الغضب ، وأنا أفكر فى هذا الزوج ، الذى لم يعرف كيف يعاشر ملاكاً مثلك ..

لا ريب أن ضلوعه لا تضم قلباً بشريًّا نابضاً ، وأن عينيه لا تريان الرِّقة المتناهـية فى ملامحك ، وحواسه لا تدرك شاعريتك ، وجمالك ..

كم كرهته فى ذلك اليوم ؟..

كم تمنيت الجلوس أمام نافذتك إلى الأبد ؟.. ولكننى كنت مضطرًّا للذهاب إلى قاعة الرياضة ، حيث تقام بطولة جـديدة ، فى بطولات رياضة الجودو ، والتى كنت أطمح فى الفوز بالمركز الأول فيها أيضاً ..

تركتك فى ذلك اليوم ، ويا ليتنى ما فعلت ..

طوال الطريق إلى قاعة الرياضة ، وأنا أفكر فى هذا الزوج القاسى ..

تمنيت يومها لو أننى حققت رغبتى القـديمة ، فى التحرُّش به ، وإشباعه ضرباً ..

بل إننى قرَّرت أن أفعل ذلك ..

صحيح أننى لم أنفـِّذ قرارى هذا ، ولكن الرغبة فى تنفيذه ، كانت وما زالت تراودنى فى إصرار ..

ولكننى كنت فى هـذه اللحظة أغلى غضباً ، ولم تكن تراودنى سوى رغبة واحدة ..

رغبة قوية ، عارمة ، شديدة ..

رغبة فى الانتقام من الرجل الذى أساء إليك ..

من زوجك ..



٤ ـ لمـاذا أيها القدر ؟

حبيبتى (لينا) ..

لم أعد إلى منزلى إلا بعد أسبوع كامل ، منذ سمعتك تطلبين من والدك الطلاق من زوجك ..

منذ رأيتك تبكين ..

عدت لأجلس أمام نافذة حجرتك كعادتى ..

فى هذه المرة كانت تملأ نفسى آلام لا حصر لها ..

كنت قد خسرت بطولة الجودو هذه المرة ، ولكن ذلك لم يكن مبعث آلامى ..

جلست أراقب نافذتك وأنا أبكى ..

أعلم أنه من العار أن يبكى الرجال ، ولكن الأحزان فى أعماقى كانت أكبر من أن أحتملها ..

كنت أبكى ، عندما رأيت زوجك يوقف سيارته الأنيقة أمام منزلك ، ويصعد إليه ..

ازدادت كراهيتى له فى هذه اللحظة بالذات ..

شعرت أننى أكره حتى طراز السيارة التى تقله إلى منزلك ..

لم تمض فترة طويلة ، حتى رأيتكما تدلفـــان إلى حجرتك ، ورأيتك تغلقين بابها فى عصبية ..

رأيته يشعل سيجارته فى برود ، وينفث دخانها فى وجهك ، وهو يسألك فى غطرسة :

– ماذا تريدين ؟

سمعتك تقولين :

– الحياة بيننا أصبحت مستحيلة يا (محمد) .

ابتسم زوجك فى سخرية ، وقال فى برود :

– وماذا بعـد ؟

قلت فى عصبية :

– أريد الطلاق .

تصوَّرت لحظتها أن غطرسته ستنهار ..

أو أن سخريته ستتلاشى ..

ولكننى فوجئت به يطلق ضحكة ساخرة ، ويقول :

– الطلاق ؟!.. هل تظنين أننى سأفعل ذلك بهـذه البساطة ؟

قلت أنت فى عصبية :

– ولِمَ لا ؟.. الطلاق هو العلاج الوحيد لزواج فاشل كزواجنا .

عاد يطلق ضحكته الساخرة المقيتة ، ويقول :

– ومن قال أن زواجنا فاشل ، أنا أراه ناجحاً للغاية.

صرخت فى غضب :

– إننى لا أحتمل سخريتك هذه .

تجهم وجهه فجأة ، وقال فى صرامة :

– ومن طلب منك احتمالها ؟

ثم أردف ، وهو يلوِّح بكفه فى وجهك :

– هل كنت تتوقعين أن أبدل شخصيتى من أجلك ؟..

أنت إذن واهمـة .. لقد حـذرنى أشقائى منك ، قالوا : إنك مدللة ، لا تحتملين الزواج .

هتفت فى غضب :

– كيف شعرت أننى مدللة ؟.. ألم أقم بكل واجباتى الزوجية خير قيام ، طوال الفترة التى قضيناها معاً ؟.. هل شعرت يوماً أننى أهملت من شأنك شيئاً ، على الرغم من أسلوبك المقيت فى التعامل معى ؟

قال فى حنق :

– هـذا هو أسـلوبى فى المعـاملة ، ولن أبدله من أجلك ، عليك احتماله أو ....

قاطعته فى غضب :

– أو ماذا ؟

عاد يبتسم فى سخرية ، وهو يقول :

– اطمئنى .. لن أطلقك ، حتى ولو توسلت لى من أجل ذلك .

رأيت وجهك يحتقن غضباً ، وسمعتك تقولين :

– لمـاذا يا (محمد) ؟.. هل من كرامة الرجل أن يذل امرأة ضعيفة ؟.. هل من دلائلِ قوّته أن يعذبها ؟

قال فى برود :

– لن أطلقك .

عدت تهتفين فى غضب :

– هل تظن أنك بذلك تبدو رجلاً قويًّا ؟

رأيته يميل نحوك ، ويقول فى سخرية :

– هل هناك حبيب آخر ؟

قلت فى غضب :

– المرأة لا تطلب الطلاق دائماً من أجل رجل آخر .

سألك فى سخرية :

– من أجل ماذا إذن ؟

أجبته فى حنق :

– إننى أطلب الطلاق من أجل حيـاتى أنا ، إننى لا أحتمل أسلوب معاملتك لى وكأننى خادمة .

ابتسم فى سخرية ، وقال فى تخابث :

– هل هو أكثر ثراءً منى ؟

رأيتك تسألينه فى دهشة :

– من هو ؟

أجابك بمزيد من السخرية والخبث :

– ذلك الحبيب ، الذى تطلبين الطلاق من أجله .

صرخت فى غضب :

– حذار يا (محمد) ، إنك تطعنى فى شرفى .

سمعته يقول فى سخرية :

– شرفك ؟!

كم كان قذراً حقيراً ، وهو يوجّه إليك هـــذه الإهانات ..

سمعتك تهتفين فى غضب :

- أنت تعلم أننى أشرف فتاة عرفتها .

رأيته يبتسم ، ويقول فى سخرية :

- هل تظنين أنى سأخبر الجميع بذلك ، لو حققت لك مطلبك فى الطلاق ؟

ارتجف قلبي ، وشحب وجهك فى ذعر وأنت تقولين :

- ماذا تعنى ؟

قال فى قسوة :

- أعنى أننى سأقول إننى أردت الطلاق ، منذ الصباح التالى للزفاف ، ولكننى حاولت أن أغفر لك ، ولكننى لم أستطع .. أنت تعلمين ما يعنيه ذلك .

يا له من كلب حقير !!

كيف يفكر فى تلويث سمعة ملاك طاهر مثلك ، لمجرّد أنك تطلبين الطلاق منه ؟..

كيف يجرؤ على هذا القول الحقير الذى تفوّه به ؟..

أكاد أن أؤكد أن قلبينا قد اشتركا فى كراهيته فى هذه اللحظة ، عندما سمعتك تصرخين فى غضب هائل :

- أيها الحقير .

ما فعله فى هذه اللحظة كان أقوى من أن أحتمله ..

لقد شاهدت هذا الوغد يهوى على وجهك بصفعة قوية رنانة ..

انطلقت من أعماق صرخة ، امتزجت بصرختك الذاهلة ، المتألمة ..

لم تثر رقتك وملائكيتك فى أعماقه أدنى شعور بإنسانيته..

لقد واصل صفعه لك فى قسوة ، وأنا أصرخ من كل خلاياى ، مع كل صفعة تهوى على وجهك الجميل ..

مع كل آهة ألم تقفز من بين شفتيك ..

فى الماضى كنت خليقاً أمام هذا المشهد ، بأن أعدو إلى منزلك ، وأنتزع هذا الحقير ، لأحطم عنقه ، وأبتر كفه التى تهوى على وجهك الرقيق ..

ولكننى الآن لم أكن أستطيع ..

كل ما كان بإمكانى أن أفعله ، هو أن أبكى وأصرخ..

لم أكن أستطيع أن أفعل سوى ذلك ؛ لأننى فى تلك اللحظة كنت أفتقد القدرة على العدو ..

كنت قعيداً فوق مقعد متحرّك ، بعد أن أصابنى الشلل فى بطولة الجودو الأخيرة ..

* * *

حبيبتى (لينا) ..

لا تبكى لحالى ..

أكاد ألمح الدموع فى عينيك ، وأنت تقرئين هــذه الفقرة من خطابى ..

أكاد أشعر بارتجافة أصابعك ..

ولكن لا تبكى ..

إننى أستطيع احتمال هذا الشلل ، الذى أقعــدنى عن الحركة ألف مرة ، ولكننى لا أحتمل دمعة حزن واحدة فى عينيك ..

صدّقينى يا حبيبتى ، إننى لم أعــد أشعر بالحزن لما أصابنى ..

لقد أصبحت أتقبّل مصيرى فى إيمان ، واستسلام للقــدر ..

إننى أشعر أن إصــابتى كانت عقــاباً من الله ــ عزّ وجلّ ــ لتفكيرى فى استخدام تلك القوة ، التى منحنى إياها فى الانتقام من زوجك ..

كان ذلك فى الليلة نفسها ، التى قرّرت فيهــا أن أنتقم منه ..

ذهبت إلى بطولة الجودو ، وذهنى مشغول بفكرة الانتقــام ..

عجزت يومهــا عن تركيز ذهنى فى المباراة ، ولم أشعر إلا بخصمى يحملنى فوق ظهره ، ويلقى بى ، فى حركة ماهرة ..

كان من المفروض ــ حينذاك ــ أن أضم جسدى ، وأسقط بإحدى الوسائل الآمنة ، التى نتعلمها فى رياضة الجودو ، ولكن ذهنى كان مشتتاً ..

سقطت يومها فوق عمودى الفقرى تمــاماً ..

حاولت أن أنهض ، ولكننى لم أستطع ..

فوجئت بأن ساقىّ لم تعودا تعملان ..

أصبحت عاجزاً فى لحظة واحدة ..

حاولت لحظتها الاحتفاظ بمعنويات مرتفعة ، ولكننى عجزت ..

إننى لم أصدّق حتى قول الأطباء ، إن حالتى ممكنة العلاج ..

لقد حاولوا ، ولكنهم عجزوا ..

كان قدرى أن أقضى عمرى كله أسير مقعد متحرك..

إن تلك الصورة ، التى تشاهدينها فى غرفتى ، والتى أبدو فيها مفتول العضلات لم تعد تشبهنى كثيراً ..

وهذه الكئوس أسفلها ، هى آخر الكئوس ..

لم أعد ذلك النجم الرّياضى الوسيم ، الذى يمشى مختالاً فخوراً ..

لم أعد حتى أمشى كالضعفاء ..

أصبحت عاجزاً ، كسيحاً ، ينحصر عالمه فى ذلك المقعد المتحرك البغيض ..

كم بكت والدتى ، وكم انتحبت شقيقتى (لبنى) .
ولكننى لم أبكِ ..

كان حزنى أعمق من أن تشرحه الدموع ..

مليارات من البشر يسيرون ليل نهار فى كل أنحاء العالم ، دون أن يفكر أحدهم لحظة واحدة ، فى هذه النعمة التى منحهم إياها رب الكون ..

لا يشعر بهذه النعمة إلا من هم مثلى ، عاجزون ::

ثلاثة أشياء فقط ، بقيت لى بعد إصابتى بالشلل ..
القراءة ، وكتابة المقالات ، والجلوس أمام نافذتك ..

كنت أكتب المقالات الرياضية ، وأنا عاجز عن ممارسة المشى العادى ..

وكنت أقرأ كثيراً ..

لم أدر فى البداية سرّ اهتمامى الشديد بكتابات (أبى العلاء المعرّى) ..

لم أدر ذلك ، حتى انتبهت ذات يوم ، إلى التشابه الكبير بيننا ::

لقد كان هو يطلق على نفسه لقب (رهين المحبسين)؛ لأنه كان أعمى ، ولم يكن يغادر منزله قط ..

أنا كنت مثله ، كسيحاً ، لاأغادر حجرتى إلا لماما ..

ولكننى أيضاً رفضت أن أشعر بالأسر ..

كنت فقط أسير حبك اليائس العميق ..

لم أشعر بأسر المقعد الذى أجلس فوقه ، إلا فى تلك الليلة المظلمة ..

تلك الليلة التى رأيتك فيها تنهارين أمام ضربات زوجك الحقير ..

كنت أبكى بدموع القهر والألم ..

كنت أبكى لأول مرة ، لأننى كسيح ..

لماذا يا قدر ؟..

لماذا تحرمنى حق الدفاع عن الإنسانة التى أحبها ؟..

لماذا تسلبنى حق الذود عنها ؟..

جلست أبكى وأتمزّق ، وأنا أسمع طرقات والديك الفزعة ، الجزعة ، على باب حجرتك ، التى أغلقتها بنفسك ..

كانت صرخاتك قد توقفت ، ولكن هذا الحقير لم يتوقف عن ضربه لك ..

حتى حطم والدك الباب ، واقتحم الحجرة ..

سمعت والدتك تصرخ فى ألم ولوعة ، ورأيتها تهرع إليك لتفعل الشىء نفسه ، الذى كنت أتمناه فى هذه اللحظة..

رأيتها تضمك إلى صدرها فى حنان وجزع ..

كان والدك شديد الغضب ، وهو يصرخ فى وجه زوجك :

– أيها الحقير ، كيف تجرؤ على هذا ؟

سمعت زوجك يكيل له السباب ، بألفاظ أخجل من ذكرها ، ورأيت الذهول على وجه والدك ، الذى لم يلبث أن قال فى غضب :

– اخرج من هذا البيت حالاً ، قبل أن أطردك .

رأيت زوجك يبتسم فى سخرية ، ويقول :

– حسناً سأخرج ، ولكنكم ستسعون إلىّ زاحفين فيما بعد .

ثم غادر حجرتك فى صفاقة ، رأيت بعدها والدك يربّت على كتفك فى حنان ، ويقول فى حزن :

– أنت محقّة يا بنيتى .. إنه أبغض إنسان رأيته فى حياتى .

سمعتك تقولين من وسط دموعك :

– أريد الطلاق يا والدى ، أرجوك ..

صمت والدك لحظة ، ثم قال :

– سنسعى إليه يا بنيتى .. سنسعى إليه .

كان حزنك أكبر من أن أحتمل رؤيته ، فأسرعت أبتعد عن النافذة ، وأنزوى فى ركن حجرتى ، وسط

كومة من الكتب ، التى أصبحت رفيق الوحيد ، منذ إصابتى بهذا الشلل اللعين ..

ذهبت أفكارى على الرغم منى إلى زوجك ..

لم أكن أتصوَّر من قبل وجود مثل هـذه الشخصية الحقيرة ..

كنت أظن البشر ، مهما بلغت قسوتهم ، بشراً ..

ولكن زوجك لم يكن يحمل قلباً بشريًّا بين ضلوعه..

صحيح أنه ثرى ، وسيم ، أنيق ..

ولكنه فى أعماقه حيوان ..

كلاَّ .. إن الحيوانات لتشعر بالعار ، لو أننا أطلقنا عليه اسمها ..

إننى لم أقرأ فى حياتى عن حيوان يضرب أنثاه بهذه القسوة والشراسة ..

إنه أحقر من أن يكون حتى حشرة وضيعة ..

كنت أفكر فى هذا ، عندما دخلت شقيقتى (لبنى) إلى حجرتى ، وسألتنى فى عطف :

– هل علمت بما حدث بين (لينا) وزوجها ؟

أدهشنى قولها ، فسألتها فى صوت مرتبك :

– ماذا حدث ؟

أجابتنى فى أسف :

– لقد انهال عليها ضرباً ، وسبَّ والديها ، ونعتهما بصفات قبيحة .

ثم أردفت فى دهشة :

– ألم تسمع ما حدث ؟.. الحى بأكمله شعر بالمعركة .

إنها فضيحة إذن ..

يا للعار !!

أطرقت برأسى ، لأخفى دموع قهرى ، وأنا أقول فى صوت متحشرج :

– سمعت ورأيت كل شىء يا (لبنى) ، ولكن ماذا أفعل ؟

أدركت أختى ما أعنيه ..

أدركته فربَّتت على كتفى فى حنان ، وقالت :

– أما زلت تحبها يا (نادر) ؟

أجبتها وأنا أبكى :

– لمْ ولن أحبّ سواها يا (لبنى) .

كنت أظن أننى وحدى أبكى ، حتى سقطت على وجهى دمعة ساخنة ، من دموع (لبنى) ، فرفعت عينى الدامعتين إليها ، وتبادلنا نظرة حنوناً ، احتضنت بعدها أختى رأسى بكفيها ، ومالت تقبّل رأسى وهى تقول :

ــ ما أشقاك يا (نادر) !!

ثم هتفت فى حماس :

ــ سأخبر (لينا) عن حبك لها .. لابد أن تعلم كل شىء .

هتفت فى ذعر :

ــ كلاً يا (لبنى) .. كلاً ، لا ينبغى لها أن تعلم ذلك .. لا ينبغى .

احتضنت (لبنى) رأسى مرة أخرى ، وقالت فى حزن :

ــ حسناً يا (نادر) .. سأترك هذا الأمر للقدر .

غمغمت خلفها :

ــ نعم .. سنتركه للقدر .

* * *

٦ ــ بريق الثروة ..

حبيبتى (لينا) ..

ما أعجب هذا القدر !!..

ما أغرب عبثه ، وتفانينه !!..

لقد برعت فى كتابة المقالات الرياضية، حتى أصبحت أشهر ناقد رياضى فى مصر كلها ..

وقّعت آلاف العقود ، وتدفقت علىّ الأموال من كل صوب ..

كل هذه العقود وقّعتها من فوق مقعدى المتحرّك ..

كل مقالاتى كتبتها وأنا أجلس فوقه ..

أصبح هذا المقعد هو حياتى كلها ..

لم يعد المال ينقصنى ، ولم أعد أفتقد الثروة ..

أصبحت أفتقد الصحة والسعادة ..

ما أعجب القدر !!..

تمنيت يوماً هذا الثراء ..

تمنيته عندما كنت صحيحاً معافى ..

حينما كنت أقطع الطريق فى زهو وخيلاء ..

يوم كنت أمشى على قدمين ..

تصوَّرت يومها أن السعادة، كل السعادة ، فى الثراء..

أما الآن ، فأنا مستعد للتخلى عن كل هذا الثراء ، فى مقابل قدمين صالحتين للمشى ..

ومن العجيب أنه على الرغم من كل ما أنفقه ، فى بذخ ، فقدت والدتى ابتسامتها تماماً ..

لقد أصبحت حزينة واجمة ..

كنت أشعر أنها تتعذب من أجلى ..

لم يكن بريق الثروة ليعوِّضها حالة العجز ، التى أصابت ابنها الوحيد ..

وكنت أتعذب لعذابها ، ولكننا - أنا وهى - كنا نحاول إخفاء حزننا ..

ولكن أحدنا لم ينجح ..

ألم أقل لك إن كلاً منا يفهم الآخر جيداً ؟..

لقد شعرت أنها تبذل مجهوداً كبيراً ، لإقناعى بالتخلى عن عزلتى فى حجرتى ..

شعرت أن ذلك يعذبها ، فقرَّرت أن أجنِّبها العذاب..

حطمت عزلتى ، وبدأت أجوب المنزل فى مقعدى المتحرِّك ..

كان لذلك فائدة عظيمة يا حبيبتى ..

لقد كشفت أن نافذة ردهتنا تطل على نافذة حجرة الانتظار فى منزلكم تماماً ..

كشفت هذا بمصادفة عجيبة ..

هل يدهشك أن أقيم فى هذا المنزل طويلاً ، ثم لا أكشف حقيقة تافهة كهذه ، إلا بمصادفة عجيبة ؟..

أنا أيضاً أدهشنى ذلك ..

لقد كانت نافذة حجرتك تملأ كيانى ، حتى لقد ظننت أنها النافذة الوحيدة لمنزلكم ..

كشفت هذا عندما كنت أجلس فى ردهة منزلى ، مولياً ظهرى إلى النافذة ، فتناهى إلى مسامعى صوت والدك الغاضب يقول :

- ما هذا الذى تقوله يا (محمد) ؟

أسرعت إلى النافذة ، فرأيت والدك يجلس مع زوجك ، فى حجرة الانتظار ، وسمعت زوجك يقول فى برود :

– كما سمعت تماماً .. إذا كنتم تريدون منى أن أطلقها ، فلتدفعوا لى ثمن ذلك .

لقد أدهشنى قوله الوقح ، كما أدهش والدك تماماً ، ووددت فى هذه اللحظة أن أبصق على وجهه ..

بل إننى فعلت ، ولكن طول المسافة منعنى من تحقيق ما أصبو إليه ..

سمعت والدك يسأله فى غضب :

– ماذا تعنى بالضبط ؟

أجابه زوجك فى وقاحة :

– لقد كلفتنى ابنتك الكثير ، لقد دفعت مهراً محترماً ، وأتيت لها بسوار من الماس ، كلفنى ثروة طائلة ، أضف إلى هذا ما أنفقته فى شهر العسل وحفل الزفاف .

بدا الاشمئزاز على وجه والدك ، وهو يسأله :

– وماذا تريد ؟

نفث زوجك دخان سيجارته فى غطرسة ، وقال فى برود :

– عشرون ألف جنيه .

حدّق والدك فى وجهه بدهشة ، وكذا فعلت أنا ..

لم يكن أبونا يتوقع مثل هذا المطلب ، الذى ينم عن خسة بالغة ..

هتف والدك فى دهشة :

– عشرون ألف جنيه ؟! .. هل أصابك الجنون ؟.. من أين آتى لك بمثل هذا المبلغ ؟.

قال زوجك فى شماتة واضحة ، تنطق بها نبرات صوته :

– ليس يعنينى من أين تأتى بها ، هذا ثمن طلاق ابنتك .

صاح والدك فى غضب :

– أتظن الزواج والطلاق نوعاً من التجارة ؟

قال زوجك فى برود :

– إنه كذلك بالنسبة لى .

قال والدك فى غضب :

– ما من رجل شهم ، يعتز برجولته ، يبيع زوجته حريّتها .

رأيتك تندفعين فجأة من حجرتك ، وكأنك كنت تستمعين إلى الحوار ، وسمعتك تقولين فى عصبية :

– أنا مستعدة لإبرائك من كل شيء يا (محمد) ، سأتنازل لك عن نفقتي ، ومؤخر الصَّداق .

كم شعرت بالاشمئزاز منه ، وهو يطلق ضحكته الساخرة ، المقيتة ، ويقول :

– يا للتضحية !!.. هل كنت تظنين أنني سأمنحك إياهما ؟

قلت في غضب :

– هذا حقي الشرعي .

رأيته يمطّ شفتيه ، على نحو يدعو للاشمئزاز ، وهو يقول :

– لا بأس ، سأخصمها من المبلغ ، فيبقى لي خمسة عشر ألفاً من الجنيهات .

صرخت أنت :

– أنت إنسان حقير .

سمعته يقول في برود :

– لن أتنازل إذن عن قرش واحد ، ما دمت وقحة إلى هذا الحد .

ثم استدار إلى والدك ، وقال :

– إنني أريد عشرين ألف جنيه نقداً ، بالإضافة إلى إقرار بتسلُّم كل مستحقاتها لديَّ ، إما هذا أو لا طلاق .

شعرت معك بالغضب ، عندما صرخت :

– لن أفعل ذلك يا (محمد) ، سأحصل على حرِّيتي بالقانون .

أطلق زوجك ضحكة عالية ، وقال :

– ستحصلين عليها في الستين من عمرك إذن .

ثم أردف في شماتة :

– وأشكرك على تذكيري بالقانون .. فهناك من نصوصه ما يسمح لي بإجبارك على العودة إلى المنزل الذي أختاره لك .

ارتجف قلبي ، وشحب وجهك وأنت تقولين :

– هل ستطلبني للطاعة ؟

أجاب في وقاحة :

– نعم .. وفي منزل شرعي ، يحوي سريراً قديماً ، وبضع قلل للشرب ، ومصباحاً غازيًّا .

رأيت وجهك يمتقع ، وسمعتك تشهقين في فزع ، ثم

تسرعين باكية إلى حجرة نومك ، ورأيت هذا الحقير يلتفت إلى والدك ، ويقول فى لهجة هى أقرب إلى التهديد والوعيد :

– سأترك لكم أسبوعاً كاملا للتفكير فى الأمر ، وسأعود يوم السبت القادم فى الخامسة مساءً ، وأريد معرفة رأيكم النهائى ، فإما العشرين ألف جنيه والطلاق ، أو حكم الطاعة .

قال هذا ، وغاب عن نظرى ، وهو يغادر منزلكم ، وجلست أنا أغلى غضباً ..

كان علىَّ أن أفعل شيئاً ..

كان علىَّ أن أعاونك على التحرُّر ، من نير هذا الزوج القاسى ..

أسرعت إلى مكتب والدى (رحمه الله) ..

وعندما أقول أسرعت ، فالأمر بالنسبة إلى يختلف ..

عندما تسرعين أنت ، فيكفيك أن تزيدى من اتساع خطواتك ، وسرعتها .

أما عندما أسرع أنا ، فهذا يعنى أن أزيد من سرعة دوران عجلتى مقعدى المتحرِّك ..

أقول أسرعت إلى مكتب والدى (رحمه الله) ، وفتحت أحد أدراجه ..

درج أعرفه جيداً ..

وأمامى رأيت ذلك الشىء ، الذى سيعاوننى على تخليصك من زوجك ..

رأيته ، وأمسكت به فى عناية ..

كان مسدساً قديماً ، كان والدى (رحمه الله) يفخر باحتفاظه به ، فقد نجح فى اقتناصه من أحد جنود الاحتلال البريطانى ، قبيل ثورة يوليو ..

كان يحتفظ به ، وبطلقاته الست ، وكثيراً ما روى لى قصته فى فخر وإعزاز ..

فحصت المسدس فى اهتمام ، ثم أخذت أحشوه بالرصاصات ..

كانت هذه هى وسيلتى الوحيدة لمعاونتك ، على الرغم من عجزى ..

أن أقتل زوجك ..

* * *

٧ ـ الجريمة ..

حبيبتى (لينا) ..

لست أدرى أى شيطان تقمَّصنى ، وأنا أعدّ خطتى لقتل زوجك بهذا الإحكام ..

لقد قضيت الأسبوع كله فى دراسة الخطة ، وتنميقها ..

كان المسدس الذى أنوى استخدامه من طراز لم يعد مستخدماً ، كما أن رصاصاته لن يمكن تعرُّفها ؛ نظراً لأنه بلا ترخيص ..

وكنت شخصاً لن تتطرّق إليه الشبهات ..

كانت خطتى تقضى انتظاره فى النافذة ، حتى يوقف سيارته الأنيقة أمام منزلك ، فى الخامسة من مساء السبت ، وما أن يغادر سيارته ، حتى أطلق عليه النار ، وألقى المسدس بكل ما أملك من قوة ، إلى جوار جثته ..

لم أشعر ـ يومئذ ـ أن هذا التفكير يخالف طبيعتى المسالمة تماماً ..

ربما كان بإمكانى أن أتراجع ، لو أننى لم أكن أجلس أمام نافذتك ، فى كل ليلة ..

كلانا لم يذق النوم طيلة هذا الأسبوع ..

كانت فكرة الجريمة ، التى أزمع ارتكابها تؤرقنى ..

وكانت فكرة الطاعة تؤرقك ..

كنت أرى مصباح حجرتك مضاءً طيلة الليل ..

كنت أسمع نحيب حزنك وآلامك ..

أو ربما خيِّل لى ذلك ..

كنت أشعر بما تعانينه ، وكنت قد اتخذت قرارى بقتله ..

لم أشعر إلا والأسبوع قد مرَّ مر السحاب ..

رأيت عقارب الساعة تقترب من الخامسة ، فأغلقت باب حجرتى فى إحكام ، حتى لا يباغتنى أحد ، وأخرجت المسدس أفحصه ، وأتأكد من حشوه ، ومن أن صمام الأمان به مفتوح ..

تأكدت من كل شىء .. ثم أدرت عجلات مقعدى المتحرِّك نحو النافذة ..

لم أكد أنظر من النافذة ، حتى ارتجف جسدى ، من قمة رأسى إلى أخمص قدمىّ ..

كانت سيارة زوجك تقف ساكنة ، خالية أمام منزلك ..

عدت أنظر إلى ساعتى فى جزع ..
لم تكن عقاربها قد تجاوزت الخامسة بعد ..
أدركت فى هذه اللحظة نقطة صغيرة ، لم أحسبها فى خطتى ..
أدركت أن رجلاً مستهتراً كزوجك ، لن يعنى كثيراً بالدقة فى مواعيده ..
ولكن لا بأس ..
إذا كان قد أفلت منى فى أثنـاء دخوله ، فهو لن يفلت فى خروجه ..
أخفيت مسدسى جيداً ، وأسرعت إلى نافذة الرّدهة ، لأعلم ما الذى استقر عليه أمركم ..
رأيته يجلس بابتسامته الساخرة المقيتة ، أمام والدك فى حجرة الانتظار ..
لم يمكننى فى البداية سماع ما يقولان ، ثم ارتفع صوت والدك وهو يقول :
– لن يمكننى دفع هذا المبلغ الضخم ، الذى تطلبه يا (محمد) ، ثم إنك ما زلت تحتفظ بأثاث ابنتى فى منزلك :
صاح زوجك فى سخرية :

– سأحتفظ بالأثاث إذن ، وهو يساوى سبعة آلاف جنيه على الأكثر ، ولكننى أريد المبلغ الباقى نقداً .
هتف والدك فى غضب :
– سأدفع خمسة آلاف جنيه ، هى كل ما أملك .
لوّح زوجك بكفه ، وقال :
– لن أقبل مليماً واحداً ، أقل من ثلاثة عشر ألفاً .
لم أكن قد انتبهت إلى وجودك بعـد ، فقـد كنت تجلسين فى مكان يحجبك عن نظرى ..
لم أنتبه ، إلا عندما سمعتك تقولين فى غيظ :
– حسناً يا (محمد) .. سأضيف أربعة آلاف أخرى .
رفع زوجك حاجبيه فى دهشة ، على حين سألك والدك :
– من أين لك بها ؟
سمعتك تجيبين فى حزن :
– سأبيع سيارتى الصغيرة .
أطلق زوجك ضحكة ساخرة ، وقال :
– حسناً يا زوجتى العزيزة ، سأشتريها منك بهـذا المبلغ ، ولكننى لن أقبل بأقل من تسعة آلاف إضافية .

قال والدك فى غضب ، وصرامة :

– خمسة آلاف فقط .

أطلق زوجك ضحكته الساخرة ، التى أصبحت أمقتها أشد المقت ، وقال :

– لن يمكنكم المساومة .

وفى حركة مسرحية شديدة الغطرسة ،انتزع من جيب سترته ورقة ، لوَّح بها فى وجهيكما ، قائلا فى شماتة :

– وليكن معلوماً لكما ، أننى قد حصلت على حكم بالطاعة فعليًّا ، وسأضطر لتنفيذه ، ما لم أحصل على المبلغ الذى طلبته كاملا .

رأيت وجهك ، الذى تحوَّل إلى اللون الأصفر الشاحب ، وذلك الذعر المرتسم فى ملامحك .. فهتفت فى غضب :

– لابد أن يموت .. لابد .. لابد .

لمحت زوجك يسير نحو الباب ، وهو يقول فى تحدٍّ :

– سأمهلكما حتى مساء الغد ، فإما أن أحصل على المبلغ كاملا ، أو أضطر إلى تنفيذ الحكم .

لم أنتظر كثيراً ..

لم أكد ألمحه ينصرف ، حتى أسرعت إلى حجرتى ، وعدت أوصد بابها جيداً ، ثم التقطت المسدس وأسرعت إلى النافذة ..

رأيت زوجك يغادر المنزل ، فصوَّبت إليه مسدسى ، وقد تضاعفت الرغبة فى الانتقام فى أعماق ..

كان لابد لى من الارتفاع قليلا ، حتى يمكننى إجادة التصويب عليه ، ففعلت ..

نسيت لحظة أننى كسيح ، واعتمدت بذراعى على مسندى المقعد ، ودفعت جسدى إلى أعلى ..

نسيت لحظة أننى كسيح ، فهويت ..

انزلقت من مقعدى المتحرِّك ، وسقطت على وجهى ..

طار المسدس بعيداً ، واستقر فى ركن الحجرة ، على حين اندفع المقعد المتحرِّك فى عكس اتجاهى ، وارتطم بباب حجرتى فى قوَّة ..

وجدت نفسى راقداً على وجهى ، عاجزاً عن الحركة ..

سمعت صوت سيارة زوجك تبتعد ، فشعرت بعجزى يتضاعف ..

كنت عاجزاً عن الحركة ، وعن الانتقام لك ..

كنت عاجزاً عن حمايتك يا حبيبتى ..

كان بإمكانى أن أزحف معتمداً على ذراعىّ، ولكننى لم أفعل ..

ظللت راقداً على وجهى أبكى ..

أبكى عجزى ، وقهرى ، وأحزانى ..

صوت ارتطام مقعدى بباب الحجرة، أثار جزع أمى وشقيقتى ، وحاولا فتح باب حجرتى ، فوجداه مغلقاً ، مما أثار مزيداً من الذعر فى نفسيهما ، فأخذا يطرقان باب الحجرة ، وهما تبكيان ، وتصرخان باسمى ..

وجدت نفسى فجأة أشاركهما البكاء ..

كنت أبكى حزناً على نفسى ..

وقع بصرى فى هذه اللحظة على صورتى ، التى أبدو فيها وسيماً قويًّا ..

صورة الشاب الذى كنته يوماً، فازداد انهمار الدموع من عينىّ ..

فوجئت بالباب يتحطم تحت ضربات أمى وشقيقتى ، اللتين اندفعتا نحوى فى لوعة ..

أدهشنى ما حدث دهشة عارمة ..

كان خوفهما علىَّ قد بعث فى نفسيهما قوة عجيبة ..

تعاونتا على حملى ، ووضعتانى فوق مقعدى ، وأنا مستسلم لهما تماماً ..

جففت والدتى دموعى بأناملها ، وسألتنى فى حزن :

– ما الذى فعلته فى نفسك يا ولدى ؟

غص حلقى بالحزن والدموع ، فلم أنبس ببنت شفة ، فأسرعت (لبنى) تقول :

– يبدو أنه انزلق ، من دون وعى يا أمى .

نقلت أمى بصرها بيننا فى شك ، ثم لم تلبث أن تظاهرت بالتصديق ، وقالت فى أسى :

– يبدو ذلك يا ابنتى .. يبدو ذلك .

ودون أن تزيد حرفاً واحداً ، غادرت الحجرة ، وأغلقت بابها خلفها ، وكأنها تترك لنا فرصة الحديث ..

رأيت (لبنى) تتجه من فورها إلى ركن الحجرة ، وتلتقط المسدس ، وتعود به إلى حيث أجلس ، ثم سألتنى فى عتاب :

– ماذا كنت تريد أن تفعل ؟

لاحظت الجزع فى عينيها ، وفهمت أنها ظنتنى كنت أحاول الانتحار ، فأطرقت برأسى وقلت :

– كنت أريد أن أقتله .

اتسعت عيناها فى ذهول ، وهى تغمغم :

– من هذا الذى تريد قتله ؟

غمغمت فى حقد :

– زوجها .

هتفت (لبنى) فى جزع :

– زوج (لينا) ؟!.. هل جننت ؟!

وجدت نفسى أصرخ فى غضب :

– إنه رجل حقير .. إن محاولته إذلالها جريمة لا تغتفر .

صاحت (لبنى) :

– أتقتله من أجل هذا ؟.. هل ترتكب جريمة لدرء أخرى ؟

أجبتها فى انفعال :

– كنت قد أعددت خطتى ، على نحو يبعدنى تماماً

عن الشبهات ، لم يكن أحد ليرانى ، لو لم يسقطنى هذا المقعد اللعين .

صرخت فى وجهى :

– والله (سبحانه وتعالى) ، ألم يكن ليراك ؟

ارتجف جسدى ، حينما تبينت لى هذه الحقيقة المخيفة ..

لقد نسيت فى غمرة حماسى ، ذلك العقاب الإلهى ، الذى لا يفلت منه مخلوق ..

ذلك العقاب العادل ، من ربٍّ يمهل ولا يهمل ..

سرت فى جسدى قشعريرة قوية ، فهتفت فى لوعة :

– رحماك يا إلهى !! رحماك وغفرانك !!

ربَّتت (لبنى) على رأسى ، وقالت فى حنان :

– اذكر الله (سبحانه وتعالى) دائماً يا (نادر) ، فلديه وحده (سبحانه) المخرج لكل صعاب الحياة .

عدت أردِّد وأنا أطرق برأسى ، وأرتجف :

– غفرانك يا رب .

* * *

٨ — الى متى ؟

حبيبتى (لينا) ..

من العجيب أن ذلك الحوار القصير ، بينى وبين شقيقتى (لبنى) ، قد غيَّر حياتى كثيراً ..

منذ ذلك اليوم ، وأنا أواظب على الصلاة ، وأجد فى أدائها راحة غامرة ، تتخلل كل ذرَّة من جسدى ..

أصبحت أكثر إيماناً بالقدر ، وتقبُّلا لمشيئة الله (عزّ وجلّ) ..

فارقنى ذلك الشعور بالعجز ، والإحباط ..

لم يعد مقعدى المتحرِّك عبئاً ثقيلا يثقل كاهلى ..

أصبح قدراً أتقبَّله راضياً ، مستسلماً ..

تغيرت حياتى حتى أننى نسيتك ..

لا تغضبى من قولى هذا يا حبيبتى ، فالإنسان لا يدرك قوة الإيمان ، وحلاوته ، إلا عندما يحياه بكل مشاعره ..

إنه حينئذ ينسى الدنيا كلها ، ويعيش فى عالم من السلام والطمأنينة ..

نسيتك حتى أننى لم أعد أجلس أمام نافذتك ، ولم أعد أدرى شيئاً عن أخبارك ..

حتى كان ذلك اليوم ، الذى دخلت فيه (لبنى) إلى حجرتى ، واضحة الحزن ..

كنت لحظتها أطالع أحد كتبى ، فنحيته جانباً ، وسألتها فى قلق :

— ماذا بك يا (لبنى) ؟

تأملت ملامحى لحظات فى صمت ، ثم قالت :

— ألا تدرى ما حدث لـ (لينا) ؟

شملتنى لحظتها رجفة ، تختلط بمزيج من الندم والأسف ...

كيف نسيتك ؟..

كيف سيطر الوسن على حبك فى قلبى ..

لم أدر لحظتها كيف تحدَّثت ، ولكننى موقن من أن صوتى قد ارتجف وأنا أسألها :

— ماذا حدث لها ؟

كان الحزن واضحاً فى صوتها ، وهى تقول :

— لقد أرغمها زوجها على الذهاب إلى منزل الطاعة .

ترى .. هل اغرورقت عيناى بالدموع لحظتها ؟..
ترى .. هل بكيت ؟..
لست أدرى ..
كل ما أذكره هو أن صوتى اختنق فى حلقى ، وبدا باهتاً ، وهو يغادر شفتى ، وأنا أقول :
– إلى متى يسومها سوء العذاب ؟
هزّت (لبنى) رأسها فى حيرة وإشفاق ، وقالت :
– لقد عجز والدها عن تدبير المبلغ الذى يطلبه هذا السخيف ، وحضر هو مهدداً إياه بأخذ (لينا) عن طريق الشرطة .. فما كان من المسكينة ، خوفاً من الفضيحة والمهانة ، إلا أن حملت حقيبتها ، وتبعته إلى هناك .
عدت أغمغم فى صوت متحشرج :
– إلى متى ؟
واصلت (لبنى) حديثها ، وكأنها لم تسمعنى :
– لقد كدت أبكى ، وأنا أراها تتخذ مقعدها إلى جواره فى سيارته ، كانت عيناه تبرقان فى شماتة عجيبة ، وكانت هى شاحبة ، هزيلة ، كمن يساق إلى حبل المشنقة و ....

قاطعتها فى ألم :
– كفى يا (لبنى) .. كفى .
لم أكن أحتمل سماع كل ما تعانينه من عذاب وآلام ، وأنا عاجز عن مدّ يد العون لك ..
لم أكن أحتمل مجرد تخيُّلك ، وأنت ذليلة مهانة فى منزل حقير ، ألقاك فيه هذا المجرم ..
لست أدرى لِمَ يصرُّ بعض الرجال على إهانة المرأة ، التى تطلب منهم الطلاق ، وإذلالها ، وكأنهم ينتقمون منها..
ألم يأمرنا الله (سبحانه وتعالى) بحسن المعاشرة ، والفراق بالمعروف ؟..
لماذا تسيطر علينا – نحن البشر – مشاعر الكراهية والحقد ، فتنسينا ما أمرنا به الخالق (عز وجل) ؟..
لماذا ؟..
لماذا لا ينظر الناس إلى الدنيا بصورة أكثر شمولا ، وعمقاً ؟..
لو أنهم فعلوا ، لكشفوا أن العالم لا يساوى صراعهم من أجله ..
دارت هذه الأفكار فى ذهنى ، وأنا أحاول تخيُّلك

تعانين هناك – حيث لا أعلم – من معاملة زوجك المهينة ..
كل هذا من أجل بضعة جنيهات ..
برقت فى رأسى فجأة فكرة ، غابت عن ذهنى كثيراً ..
إننى أربح كثيراً ، ولم تعد لى طموحات تستلزم الثروة ..
لماذا لا أعاونكم ، ولو بصورة سرّية على الخلاص ؟ ..
رفعت رأسى بغتة إلى (لبنى) ، وسألتها فى انفعال :
– هل يمكننا ادخار أربعة آلاف جنيه يا (لبنى) ؟
خيل إلىّ أنها فهمت ما أقصده تماماً ، فقالت فى حماس :
– بالطبع .
ثم أردفت وكأنها تشاركنى اهتمامى :
– إننى أدخر ثلاثة آلاف بالفعل .
تهللت أساريرى ، وقلت فى لهجة هى أقرب إلى التوسُّل :
– اذهبى بها إليها يا (لبنى) ، عاونيها على التحرُّر من نير عبوديته .
ابتسمت وهى تنحنى ، وتقبّل وجنتى فى حنان ، ولمحت دمعة تنسال على وجنتها ، وهى تقول :

– كنت قد أتيت أعرض ذلك .
نظرت إليها فى امتنان ، فأردفت :
– أنا أيضاً أحبُّ (لينا) ، وأتمنى لها السعادة .
لن يمكنك يا حبيبتى تصوُّر سعادتى وارتياحى فى هذه اللحظة ..
شعرت أننى لم أعد عاجزاً ..
أننى أصبحت قادراً على معاونتك ..
يا له من شعور جميل ! !
شعور القدرة ، حينما ينتاب كسيحاً عاجزاً ..
كنت أتنهد فى ارتياح ، وكانت (لبنى) تبتسم فى حنان ، عندما لمحتك فجأة تقفين مع والدتك فى حجرتك..
لحظتها لم أفهم شيئاً ..
لم أفهم كيف عدت ..
راودتنى أفكار شتى ..
هل تحرَّرت ؟ ..
هل طلقك زوجك ؟..
صحت فى (لبنى) :
– لقد عادت (لينا) .

حبست (لبنى) أنفاسها ، وهى تحدّق فيكِ بدهشة ، ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها ، وغمغمت :

— كيف ؟

جاءنا الجواب على لسانك أنت يا حبيبتى ..

كنت تبكين وأنت تقولين لوالدتك :

— لم أعد أستطيع الاحتمال يا أماه ، لقد زادت معاملته لى وقاحة وشراسة ، وهذا المنزل الحقير القذر ، الذى اختاره لإقامتى ، يكاد يورثنى الجنون .

احتضنتك والدتك فى شفقة وحنان ، وقالت :

— لا تعودى إليه يا بنيتى .. لا تعودى للعذاب .

دخل والدك إلى حجرتك فى هذه اللحظة ، وقال فى حزن :

— قلبى يتمزّق من أجلك يا ابنتى ، ولكننى أخشى أن يعود إلى أخذك ، على نحو مهين .

رأيتك تبكين فى هستيريا ، وتقولين :

— سألقى بنفسى من النافذة لو حاول .. إننى لا أحتمل البقاء فى هذا العذاب لحظة واحدة .

ثم تشبثت بوالدك ، وصحت :

— إنه ينعتكما بصفات قبيحة يا والدى ، ويلقى ذلك على مسامعى ليل نهار ، وكأنه جلاد قاس ، يجد لذته فى تعذيب الآخرين .. إننى أرى الشماتة فى عيون أفراد عائلته .. شقيقته تعاملنى كالخادمة .

تمزّق قلبى ، حينما هويت على كفّ والدك تقبلينها ، وأنت تصرخين فى لوعة :

— أرجوك يا والدى ، لا تدعنى أذهب إلى هناك .. أرجوك .

وجدت نفسى أنا أيضاً أتشبث بذراع (لبنى) ، وأصرخ .

— اذهبى إليهم يا (لبنى) .. اذهبى .

غمغمت (لبنى) :

— سأذهب فى الغد يا (نادر) ، فالنقود فى البنك ، ولن أحصل عليها قبل الغد .

ارتجفت وأنا أقول فى خوف :

— الغد !!.. ومن يدرى ما يأتى به الغد ؟

* * *

٩ ـ هذا الغد الرهيب ..

حبيبتى (لينا) ..

لم أفارق فى ذلك اليوم نافذتك لحظة واحدة ..

كنت أرتجف خوفاً مما قد يأتى به الغد ..

كنت أعلم أن زوجك لن ينتظر حتى الغد ..

وهذا ما كان ..

كانت الساعة تدق تمام الثامنة مساءً ، عندما رأيته يوقف سيارته ، ويهبط منها ، بصحبة ثلاثة آخرين ، عرفت من التشابه بينهم أنهم ـ ولا ريب ـ أشقاؤه ..

أسرعت بمقعدى المتحرّك إلى نافذة الردهة ، وكلى لهفة لمعرفة ما يريدون ..

هناك فى حجرة الانتظار بمنزلكم ، كان يجلس والدك مع عمك ، وزوج أختك ، وأنا أعرفهما جيداً ، وأعلم أنهما وديعان مسالمان ، كمعظم أفراد عائلتك ..

رأيت والدك وهو يستقبل زوجك ، وأشقاءه الثلاثة فى برود ، وسرعان ما استقر المقام بالجميع فى حجرة الانتظار ..

كان زوجك هو الذى بدأ الحديث ، قائلا فى عنف :

ـ أريد زوجتى .

أجابه عمك فى هدوء :

ـ نريد منك أن تطلقها بالمعروف .

أطلق زوجك ضحكته الساخرة المقيتة ، وقال :

ـ أنتم تعرفون الثمن .

التفت والدك إلى أشقائه الثلاثة ، وقال فى غضب :

ـ هل يرضيكم ذلك ؟

فوجئت بأحدهم يقول فى برود :

ـ بالطبع .. هذا ثمن عادل .

رأيتك تندفعين فجأة إلى حجرة الانتظار ، وتقولين فى عصبية :

ـ أى رجال أنتم ، هل تتاجرون بالزواج والطلاق ؟

رأيت الغضب يملأ وجوههم، وسمعت أحدهم يقول لزوجك :

ـ هل ستؤدب زوجتك ، أم نتولى نحن ذلك ؟

هبَّ عمك غاضباً ، وقال :

ـ فليجرؤ أحدكم على مس شعرة واحدة منها .

حدث كل شىء بسرعة مذهلة ، وعلى نحو مثير للرعب ..

رأيت أحد أشقاء زوجك يلتقط أحد الأكواب الموضوعة أمامه ، ويلقى به نحو رأسك ..

صرخت أنت ، وصرخت أنا ..

رأيتك تجرين إلى الخارج ، وأنت تطلقين صرخات فزعة ، ورأيت الدماء تسيل من رأس عمك ، ومن شفتى زوج شقيقتك ..

كان المشهد أقرب إلى مشاجرة رعاع ، منه إلى مناقشة بين قوم متحضرين ..

رأيت كل هذا وأنا أصرخ ألماً وذعراً ، حتى أن والدتى وشقيقتى أسرعتا إلىَّ ، وشاهدتا كل شىء ..

الحىُّ بأكمله شاهد ما حدث ..

لست أدرى ما فعلته أنت ، ولكننى واثق أنك استنجدت بشرطة النجدة ، فلم تمض لحظات ، حتى ارتفع صوت البوق المميز لسياراتهم ، وتوقفت إحداها أسفل

المنزل ، ولم يلبث منزلكم أن امتلأ برجال الشرطة ..

كان موقفاً أغرب من أن يصدِّقه إنسان واحد ..

كيف يجرؤ هؤلاء الأوغاد على الاعتداء عليكم فى منزلكم ؟..

هل بلغت وقاحتهم ، ودناءتهم هذا الحدّ ؟..

مرَّة أخرى وجدت نفسى ألعن هذا العجز الذى أحياه ..

مرَّة أخرى يراودنى الشعور بالمرارة ؛ لأننى كسيح ..

رأيتك تبكين فى هلع ، ورأيت رجال الشرطة يصطحبون زوجك وأشقاءه الثلاثة كالمجرمين ، وهو يهدِّدك ، ويتوعدك بألفاظ تعف عنها نفس الرعاع ، وحثالة الناس ..

مرَّة أخرى لم أصدِّق وجود مثل هؤلاء فى قائمة البشر ..

لقد أخذت تبكين فى مرارة ، ووالدتك تحاول التخفيف عنك ، باحتوائك فى صدرها ، بين ذراعيها ..

كانت ليلة ليلاء ، ما زال الحى كله يتحدث عنها حتى الآن ..

علمت فيما بعد أن جرحى عمك ، وزوج شـقيقتك قد احتاجا إلى تدخل جراحى بسيط ، عادت بعده العائلة تجتمـع فى حجرة الانتظـار بمنزلكم ، وقد أضيف إلى وجهيهما بعض الأربطة والضمادات ..

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً ، عندما قال عمك فى غضب:

– لن نسمح لمثل هؤلاء الأوغاد بأخـذ (لينا) مرة أخرى ، حتى ولو اضطررنا لتهريبها إلى خارج البلاد .

قال زوج شقيقتك ، الذى كان يبدو أكثر رصانة وتماسكاً من الجميع :

– أعتقد أن اعتداءهم هذا جاء لمصلحتنا .

هتفت والدتك فى استنكار :

– لمصلحتنا ؟!.. كيف تقول ذلك ؟

أجابها فى هدوء :

– لقـد اتهمنـا زوج (لينا) وأشقاؤه ، فى محضر الشرطة ، بالاعتداء علينا فى منزلنا ، ولقـد أثبتنا وجود إصابات بنا ، وعدم وجود أى نوع من الإصـابات فى

أى جزء من أجسادهم ، وهـذا سيعطينا نقطة تفوّق ، يمكننا المقايضة بها على الطلاق .

هتف والدك فى حماس :

– يا إلهى !! هذا صحيح .

قلت أنت فى عصبية :

– فليكن ما يكون .. المهم أن أتخـلص من هـذا الوحش .

قال زوج شقيقتك فى رصانة :

– سنتخلص منـه بإذن الله (سـبحانه وتعـالى) يا (لينا) .. وسترين غداً أننى على حقّ .

أتى الغد .. وأتى معه زوجك فى الصباح الباكر ..

كانت (لبنى) قد ذهبت إلى البنك لإحضار النقود ، عندما رأيته يوقف سيارته أمام منزلكم ، ويصعد إليـه ، والغضب باد فى ملامحه ..

استقبله والدك ، وعمك ، وزوج أختك ، كما لو كان الجميع على موعد ، فى هذا الوقت المبكر ..

ابتدره عمك قائلا :

– ما رأيك فيما اقترحته عليك يا (محمد) ؟
قال زوجك فى صرامة :
– هل تريدون إجبارى على الطلاق ؟
أجابه زوج شقيقتك فى برود :
– نعم .
كان من الواضح أن زوجك شديد العصبية ، فقد أشعل سيجارته بأصابع مرتعدة ، وقال :
– لن أتنازل عن العشرين ألف جنيه .
قال عمك فى غضب :
– لن نتنازل نحن أيضاً عن اتهامكم بالاعتداء علينا ، وليقل القضاء كلمته .
كان من الواضح أن الموقف قد أخذ يميل إلى التعادل ، وأن زوجك لم يعد يمسك وحده خيوط اللعبة ، فقد عجز عن إطلاق ضحكته الساخرة المقيتة ..
عجز حتى عن رسمها فوق شفتيه ، وهو يقول :
– لن يتعدّى الأمر بضعة شهور من السجن ، وغرامة ضئيلة .

ابتسم زوج شقيقتك ، وقال فى برود :
– يكفينا أن نراك فى حُلَّة السجن الزرقاء .
ازداد ارتباك زوجك ، وعصبيته وهو يقول :
– كم تريدون ثمناً للتنازل عن القضية ؟
أجابه والدك فى انفعال :
– طلاق (لينا) .
أخذ زوجك ينفث دخان سيجارته فى توتر ، ثم قال :
– سأحصل على خمسة عشر ألفاً أيضاً .
قال عمك فى صرامة :
– سنسترجع أثاث (لينا) ، وستحصل على المهر الذى دفعته ، والشبكة التى أحضرتها فقط ، على الرغم من أن هذا يخالف الشرع .
استغرقت فى سماع هذه المناقشة ، حتى أننى لم أشعر بـ (لبنى) ، التى عادت من البنك بالنقود ، إلا عندما سمعتها تقول :
– لقد أحضرت النقود يا (نادر) .
أشرت إليها أن تصمت ، وعدت أصغى إلى حديثكم فى اهتمام ..

كان زوجك يقول فى حنق :

ـ وماذا عن حفل الزفاف و .....؟

قاطعه عمك :

ـ سنمنحك عشرة آلاف جنيه ، على أن نسترجع الآثاث .

صمت زوجك لحظة ، ثم قال فى حدة :

ـ وتقرُّ هى بأنها قد تسلمت مؤخر صداقها ، ونفقتها .

قال والدك فى ضجر :

ـ لك هذا أيضاً .

ساد الصمت لحظة أخرى ، ثم قال زوجك فى حنق :

ـ حسناً .. أنا أوافق .

* * *



١٠ ـ وتحطم القيد ..

حبيبتى (لينا) ..

لم أتلقَّ فى حياتى خبراً أسعدنى ، بقدر خبر طلاقك من هذا الوغد ..

عجيبة هى هذه الدنيا ..

الناس عادة تفرح للزواج ، وتحزن للطلاق ..

ولكن طلاقك أنت كان مغايراً ..

لقد كان أشبه بحفل كبير فى حيِّنا بأكمله ..

الجميع كانوا يتعاطفون معك ، لما رأوه من شراسة زوجك السابق ، وسوء خلقه ..

ما زلت أذكر تلك الزَّغرودة التى أطلقتها والدتك يوم طلاقك ..

لقد أزالت من نفسى كآبة الزَّغرودة الأولى ، التى أطلقتها يوم زفافك ..

عجيب هو الإنسان أيضاً ..

الشىء الواحد يتخذ لديه انطباعات مختلفة متباينة ، طبقاً لما تفرضه الظروف ..

منذ سمعت تلك الزّغرودة ، التى انطلقت من منزلكم ، يوم خطبتك وأنا أكره هذا الصوت تماماً ..

كانت الزّغاريد فى أى حفل زفاف توحى لى بالحزن والكآبة ..

أما الآن .. فهى توحى لى بالتحرُّر ، والانطلاق ، والسعادة ..

لأول مرّة منذ عرفتك حملت دموعى طعم السعادة ..

لأول مرّة منذ زواجك أشعر بالفرح والأمل ..

لم يكن مبعث فرحى هو أدنى أمل فى أن تصبحى زوجتى ، فقد أصبح هذا الاحتمال بعيداً بعد إصابتى بهذا الشلل.

ليس من العدل أن ترتبط حياتك بعاجز مثلى ، بعد كل هذا العذاب الذى لقيته من زوجك الأول ..

ليس من العدل أن تتعذبى مرّتين ..

كان حبى لك قد أصبح عميقاً قويًّا ، حتى أننى كنت أتمنى لك السعادة ، ولو على حساب نفسى ..

جلست أمام نافذتك ، والابتسامة العريضة تملأ وجهى ، أسترجع الأحداث التى مرّت بنا – أنا وأنت – منذ رأيتك لأول مرة ..

كشفت فى ذكرياتى هذه ، أنه فى كل مرّة كان هناك حاجز يفصل بيننا ..

فى البداية كان هذا الحاجز هو الفارق بين مستوى عائلتك ، الذى يعلو المستوى المتوسط ببضع درجات ، ومستوى عائلتى الذى كان – آنذاك – يقترب من مستوى الفقر..

وفى المرة الثانية كان الحاجز هو زواجك ..

كان حاجزاً قويًّا يصعب تخطّيه ..

قيد يحُول بينى وبينك ..

ثم تحطم القيد ..

تحطم فى لحظة ، كان بيننا فيها حاجز يمتد من الأرض إلى السماء ..

حاجز عجزى ..

لقد تحطمت الحواجز الأخرى ، وبقى هذا الحاجز منيعاً قويًّا ..

أدركت لحظتها قول شقيقتى إن كل شىء نصيب ..

نصيب هو ألا نلتقى أبداً ..

ولكننى أرضى بذلك .. ما دمت سعيدة ..

لا يمكنك أن تتصوّرى مدى فرحتى . وأنا ألمح تلك

الابتسامة ، التى عادت تتألق فوق شفتيك بعد طلاقك ..

عاودك مرحك الذى طالما افتقدته ..

أخيراً.. بدأت أنام ملء جفنىّ ، بعد أن كان النوم لى عسير المنال ..

يكفينى أنك أصبحت حرّة ..

إننى حتى لم أهتم ، عندما قرأت خبراً صغيراً فى إحدى الصحف ، يقول إن فريقاً من الأطباء المصريين قد تمكن من إيجاد علاج لحالة شبيهة بحالتى ..

لم أهتم كثيراً ؛ لأننى لا أريد التمسك بأهداب أمل واهٍ ..

لم يقلقنى شىء إلا عندما قالت لى (لبنى) يوماً :

– هل تعلم أن (محمد) يسىء إلى (لينا) فى كل مكان ، بعد أن طلقها ؟

سألتها فى ضيق :

– كيف ؟

أجابتنى فى اشمئزاز :

– كنت أصفّف شعرى عند (الكوافير) ، عندما سمعت فتاتين تتحدثان عن طلاقها ، وقالت إحداهن إن (محمد) تركها لسوء أخلاقها .

غصّ حلقى فى ألم ، وقلت :

– لن يصدّقه أحد .

قالت (لبنى) :

– ربما كان هذا صحيحاً فى مجتمع آخر ، ولكن مجتمعنا يميل إلى تصديق مثل هذه الأمور .

سألتها فى ألم :

– حتى بعد ما رأوه من سوء خلقه هو ؟

هزّت (لبنى) رأسها ، وقالت :

– إنه يقول فى مجالسه إنها خليعة و ....

قاطعتها فى مرارة :

– لا أحبّ أن أسمع هذا القول يا (لبنى) .

صمتت (لبنى) لحظة ، ثم جلست إلى جوارى ، على طرف الفراش ، وقالت فى حنان :

– ما رأيك أن تطلب منها الزواج يا (نادر) ؟

ابتسمت فى مرارة ، وقلت فى استنكار :

– أنا ؟!

هتفت (لبنى) فى حماس :

– نعم.. أنت ناقد رياضى شهير ولا تنقصك الأموال و....

قاطعتها وأنا أشير إلى مقعدى ، قائلا فى يأس :

– وهذا ؟

ظهر الحزن فى عينيها ، وهى تقول :

– هذا لا يسىء إليك كثيراً لو ....

بترت عبارتها فجأة ، ولكننى فهمت ما تعنيه ، فقلت :

– لو أنها تحبنى .. أليس كذلك ؟

ثم أردفت فى حزن :

– كلاً يا (لبنى) .. الحبّ الحقيقى هو أن يتمنى المحبُّ دائماً الخير لمحبوبه ، حتى ولو كان هذا الخير فى فراقه له .

سألتنى فى صوت مختنق :

– هل ستقضى عمرك كله معذباً هكذا ؟

قلت فى حزن :

– هذا قدرى يا (لبنى) ، ومن يدرى ؟.. ربما كان فى هذا كل الخير .

قالت وهى تبكى :

– أفصح لها عن مشاعرك إذن .

هززت رأسى نفياً ، وقلت :

– خطأ يا (لبنى) .. قد تدفعها الشفقة حينئذ إلى الوقوف بجانبى ، وأنا أرفض ذلك ، فشتان بين الحب والشفقة .

ربّتت على كتفى ، وقالت بحنانها الشديد :

– فليكن الله فى عونك يا (نادر) .

ثم غادرتنى ، وهى تحاول إخفاء دموعها ..

غادرتنى دون أن تدرى أننى أيضاً أبكى ..

لقد ذكرنى حديثها برواية قديمة قرأتها ، تحمل عنوان (حذار من الشفقة) ..

فى هذه الرواية كانت البطلة كسيحة ، وكان البطل غارقاً فى حبها ، وهو لا يعلم عن عجزها شيئاً ، وكانت هى تحاول إخفاء الأمر عنه بشتى الوسائل ، إلى أن أتى يوم تحدثا فيه عن العجز ، وأدلى هو إليها برأيه فى بساطة ، وهو لا يعلم أنه يتحدث عن مأساتها بالذات ..

قال إن العاجز ينبغى له ألا يضيع أعمار الآخرين ومشاعرهم إلى جواره ..

ينبغى أن يتحمل وحده مسئولية عجزه ..

لم يدر وهو يشرح لها وجهة نظره ، أنه يحكم عليها بالإعدام ..

وكشف البطل أن حبيبته كسيحة ..

كشف ذلك بعد فوات الأوان ..

بعد أن انتحرت حبيبته ، حتى لا تضيع عمره إلى جوارها ..

عملت بنصيحته ، فأورثته الندم والعذاب طيلة عمره ..

كم بدت لى هذه القصة شبيهة بقصتى ..

أنا أيضاً أكره الشعور بالشفقة والعطف ..

أكره أن أربط حياة الآخرين بضعفى ..

كنت سعيداً ؛ لأنك تحرَّرت من قيد وحشية زوجك السابق ..

ولم أكن مستعدًّا لوضع قيد جديد فى معصميك ..

قيد يصنعه عجز زوج جديد ..

كنت أتمنى لك العيش إلى الأبد فى سعادة ..

كنت أظن أنك تعيشين هذه السعادة بالفعل ، حتى كشفت أنك تعيشين جحيماً جديداً ..

جحيم المطلقات ..

* * *

١١ - جحيم الدنيا ..

حبيبتى (لينا) ..

معظم دول العالم تعتبر الطلاق مجرَّد نهاية طبيعية ، لزواج لم يكتب له النجاح ..

فى أوربا كلها ينظرون إليه على أنه أمر عادىّ ، كثير الحدوث ..

حتى فى المملكة السعودية ، لا يلتفتون كثيراً إلى حوادث الطلاق ، باعتبارها حقًّا من حقوق الرجل والمرأة ..

أما هنا فى مصر ، فنحن نتصوَّره حكماً بالإعدام ..

حكماً فرديًّا ، يوقعه المجتمع على المرأة المطلقة وحدها ، من دون الرجل ..

حتى ولو كان الرجل هو المخطئ فى هذا الطلاق ..

إن الرجل يعيش حياته العادية بعد الطلاق ، فيخرج ، ويتنزه ، ويعود إلى منزله مع أذان الفجر ، دون أن يرى إنسان واحد أدنى خطإ فى هذا ..

أما المرأة المطلقة ، فإنها تعيش فى جحيم صنعه البشر على الأرض ..

جحيم لا تغشاه إلا المطلقات فقط ..

الجميع يحيطونها بنظرات الشك والريبة ..

يعدُّون خطواتها ، ويحصون أنفاسها ..

يتهمونها بالفسق إذا ما ابتسمت فى مكان عام ..

يرمونها بالفجر إذا ما كانت مرحة متبسطة ..

إنهم يطلبون منها أن تنزوى فى قبر المطلقات ، وكأنما يتصورُّون أن الخيط الذى يربطها بالشرف قد انقطع ، بمجرَّد طلاقها ..

لهذا تحوَّلت حياة المطلقات إلى جحيم فى أرض مصر .

لم أنتبه إلى هذه الحقيقة ، إلا عندما سمعت بالمصادفة حوَّاراً ، بينك وبين والدتك فى حجرتك ..

كنت جالساً إلى جوار النافذة ، عندما سمعت صوتك تقولين :

- هذا حكم بالسجن المؤبد يا أماه ، وأنا لم أفر من سجن إلى آخر .

أثارت العبارة انتباهى ، فالتفت لأرى والدتك تلوِّح بكفها فى حيرة ، وسمعتها تقول فى حزم يختلط بالحنان :

- إننى أحاول أن أدرأ عنك تلك الشبهات ، التى ألقاها حولك زوجك السابق يا بنيتى .

سمعتك تقولين فى غضب :

- فليقل ما يقول ، إنه لن يستمر فى تعذيبى ، حتى بعد طلاقى منه .

قالت والدتك فى هدوء :

- سمعة المرأة هى رصيدها فى الحيـاة يا (لينا) ، ولابد لها من أن تحافظ عليها مهما كان الثمن .

هتفت فى غضب :

- ألا تتأتى المحافظة على سمعتى ، إلا فى هذا السجن .

صاحت والدتك، وقد بدأ الغضب يتسلل إلى كلماتها :

- أى سجن هذا الذى تتحدثين عنه ، كل ما أطلبه منك هو أن تحاولى الحفاظ على سمعتك .

صحت أنت أيضاً :

- إن ما تطلبينه منى هو أن أحترق ، إنك تطلبين منى ألا أغادر المنزل إلا للضرورة ، وبصحبة شقيقتى وزوجها ، وألا أنظر من النافذة ، أو أذهب لزيارة إحدى صديقاتى .

ثم أردفت فى غضب زائد :

– إنك تطلبين منى أن أتحوَّل إلى جثة ، لا ينقصهـا إلا الموت .

ساد الصمت بينكما لحظة ، ثم عدت تقولين فى حنق:

– لقد ظننت يوماً أن بعض الطوائف الهندية هم أشد مخلوقات الأرض قساوة ، حينما قرأت أنهم يجبرون أرملة المتوفى على الاحتراق حية ، مع جثته ، ولكننى كشفت بعد طلاقى أنهم أكثر رحمة من مجتمعنا ، فالأرملة هنـاك تحترق ، ولكن عذابها لا يستغرق أكثر من الفترة الكافية لموتها وسط النيران .. أما المطلقة هنا فهى تحترق فى كل يوم ولحظة ، تحـترق دوماً ، وكأنهـا تعيش فى جحيم لا نهاية له .

صاحت والدتك :

– من قال إنه لا نهاية له ؟.. ستنتهى كل هذه المحاذير فور زواجك .

سمعتك تهتفين فى استنكار :

– أتزوَّج ؟!.. أنا ؟!

قالت والدتك فى حماس :

– بالطبع .. أقسم أن أزوِّجك من يفوقه ..

قاطعتها فى ألم :

– أنت واهمة يا والدتى .

ثم أسرعت تردفين :

– سأفعل ما يحلُو لى ، فأنا إنسانة نظيفة شريفة ، وما من قوة فى الأرض تجبرنى على القبول بهـذا السجن الاختيارى .

أسعدتنى ثقتك بنفسك ، واعتزازك بحرِّيتك ..

تصـوَّرت فى البـداية أن آراء والدتك متخلفـة ، متأخرة ..

ولكننى كشفت أنها أكثر فهماً منا ، لذلك المجتمع الذى نعيش فيه ..

لقد بدأت ألحظ نظرات الناس إليك ، وأنت تسيرين فى الشارع ..

كانت نظرات الشبان منهم تحمل الكثير من الطمع ..

هم أيضاً يتصوَّرون المطلقة فريسة سهلة ..

يتصوَّرونها ستلقى بنفسها بين ذراعى أول من يطلبها ..

عجزت عقولهم المحدودة من فهم علاقة الإنسان – رجل أو امرأة – بالشرف ..

إنها ليست علاقة مادية ملموسة ، ولكنها شىء تنبض به عروقه كلها ..

الشىء الوحيد الذى يجبر الإنسان على المحافظة على شرفه هو إيمانه به ..

تماماً كما نصوم فى شهر رمضان ..

من السهل أن يتظاهر الإنسان بالصوم ، ثم يأكل ويشرب دون أن يراه أحد ..

ولكننا لا نفعل ؛ لأننا نريد أن نصوم ..

الشرف أيضاً هكذا ..

إننا نصبح شرفاء ؛ لأننا نريد أن نكون شرفاء ..

هذا فقط هو السبب ..

ليت الجميع يفهمون ذلك ..

ما كنت ستعانين إذن من هذا الجحيم الذى تعيشينه الآن ..

لقد كنت أشعر بآلامك ، عندما كان والدك يتشاجر معك ، لتأخرك بعض الشىء عن موعد عودتك ..

عندما كان يرمقك بغضب ، وأنت تغادرين المنزل فى كل مرة ..

أخذت أدعو الله (سبحانه وتعالى) أن يخرجك من جحيم الدنيا هذا ..

تناقشنا فى هذا الأمر ذات ليلة ، أنا وشقيقتى (لبنى)، التى قالت :

– هذا هو ما تعانيه المطلقات دائماً يا (نادر) ، وليس له سوى حل واحد ؛

سألتها فى لهفة :

– ما هو ؟

أجابتنى فى هدوء :

– أن تتزوَّج .

قلت فى حنق :

– وماذا لو أنها لم تعثر على الزوج المناسب ؟

كانت الغيرة تبدو واضحة فى صوتى ، ولست أشك فى أن (لبنى) قد انتبهت إليها ، ولكنها تظاهرت بتجاهلها وهى تقول :

– كثيراً ما تقع بعض المطلقات فى هذا الخطإ ،

فعلى الرغم من فشلها فى الزواج الأول ، إلا أنها تتسرع كثيراً فى قبول الزواج الثانى ، ربما فراراً من جحيم المطلقات هذا ، وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى فشل الزواج الثانى أيضاً ، ولكنها هذه المرَّة تخشى الطلاق ، ويبدو لها الفشل الثانى أهون كثيراً من جحيم المطلقات ، الذى قاسته من قبل .

قلت فى حزن :

– نحن إذن نقتلهن دون أن ندرى .

وافقتنى بإيماءة من رأسها ، وقالت :

– لو أننا توقفنا عن الشك بالناس ، واتهامهم بالباطل ، ما كان هناك جحيم فى الدنيا .

انقطع حديثنا عند هذه النقطة ...

تماماً كما تنقطع أحاديث المصريين ، عندما يتحدثون عن الأخلاقيات ،أو يشكون ظروفهم ..

لا حلول ، ولا راحة ..

انقطع حديثنا ، وتركتنى (لبنى) لأفكارى ..

ترى .. هل ينتهى جحيمك حقًّا لو تزوَّجت ؟ ..

سيطرت علىَّ الفكرة ، حتى أخذت أدعو الله أن يمنحك زوجاً ، يمكنه أن يمحو من حياتك عذاب زواجك السابق ..

لست أدرى لم تتحقق دائماً دعواتى للآخرين ، وتبقى دعواتى لنفسى وحدها جامدة ، لا تتحقق ..

فى اليوم التالى لدعوتى تماماً أخبرتنى (لبنى) ، أن شابًّا وسيماً قد تقدم لوالدك يطلب يدك ..

ليتك تعلمين كم أحبك يا حبيبتى ..

لقد أحببتك حتى أننى شعرت بالسعادة ، لقرب زواجك الثانى ..

أصدقك القول إننى شعرت بسعادة عجيبة ..

سعادة تمتزج بكثير من الغيرة والحزن ..

الغيرة لأنك ستتزوَّجين رجلاً آخر ..

والحزن لأننى لم أكن أجرؤ حتى على طلب الزواج منك ..

عجزى يمنعنى أن أفعل ..

إنه يحرمنى حتى مجرد الأمل فى ذلك ..

جلست أمام النافذة ، فى الموعد الذى حـدَّده الشاب الذى يرغب فى الزواج منك تمـاماً ، وأنا أراقب الطريق فى لهفة ..

كنت أريد أن أتأكد من صلاحيته للزواج منك .. ورأيته ..

لست أنكر أن غيرتى قد تضاعفت عندما رأيته ..

كان أكثر وسامة من زوجك السابق ..

وكانت ملامحه تدعو للارتياح ..

فى هذه المرة أغلقت النافذة ..

لم يكن هناك ما يبرِّر تدخُّلى فى حياتك بعد الآن ..

بعد أن تصبحى زوجة لرجل ثان ..

أغلقت النافذة ، وجلست إلى جوارها صامتاً ..

كنت فرحاً من أجلك ..

من أجل قرب خروجك من جحيم الدنيا ..

وكنت حزيناً ؛ لأننى أفقدك ..

هل رأيت يوماً مثل هذا المزيج فى إنسان واحد ؟..

كان الحزن والفرح فى قلبى متعادلين ، حتى أننى لم أستطع تغليب أحدهما على الآخر ..

قضيت ليلتى كلها مسهَّداً ، مفتوح العينين ، أحدِّق فى سقف الحجرة بلا تفكير ..

انتبهت فجأة إلى أننى لم أسمع والدتك تطلق زغرودتها الرَّنانة هذه المرَّة ..

شغلنى هذا التفكير ، حتى انبلج الصبح ..

قاومت كثيراً ، حتى لا أطل على نافذتك ..

كنت أريد أن أقنع نفسى أننى غادرت حيـاتك إلى الأبد ..

أو بمعنى أدق ، أنك أنت غادرت حياتى إلى الأبد ..

فلم أكن أنا يوماً جزءاً من حياتك ..

كنت أحاول إقناع نفسى بذلك ، عنـدما سألتنى (لبنى) فى اهتمام :

– هل علمت ما فعلته (لينا) مع خطيبها الجديد ؟

سألتها فى اهتمام :

– ماذا فعلت ؟

جاءت إجابتها مفاجئة :

– لقد رفضته .. رفضت مبدأ الزواج تمـاماً .

* * *

١٢ ـ اليـأس ..

حبيبتى (لينا) ..

الحقيقة أننى لم أفهم سبب رفضك هذه المرَّة .

خاصة بعد أن أكدت لى (لبنى) ، أن هذا الشاب ممتاز من كل الوجوه ..

فقد كان وسيماً ، أنيقاً ، ذا مركز مرموق ، وعائلته مشهورة بالطيبة ، وحسن المعاشرة ، وهو إلى جوار ذلك طيب القلب ، لين العريكة ..

لم أفهم سبب رفضك حقّاً ..

حاولت أن أبحث عن أى سبب منطقى ، ولكننى عجزت ..

لم أجد أمامى إلا مناقشة الأمر مع (لبنى) ، فسألتها :

ـ لماذا تظنين (لينا) رفضت الزواج ؟

أجابتنى فى اهتمام :

ـ أعتقد أن رفضها لم يكن موجهاً إلى هـذا الشاب بالذات ، وإنما إلى الزواج نفسه .

سألتها فى دهشة :

ـ ماذا تعنين ؟

أجابتنى فى لهجة معلم ، يشرح أمراً غامضاً لتلميذه :

ـ يحـدث فى بعض الأحيـان ، بعـد أن تمرّ فتاة ما بتجربة زواج سيئة ، أن تكره فكرة الزواج نفسها ، حتى أنها بعـد طلاقها تصاب بعقدة نفسية ، تجعلهـا تستعيد ذكريات عذابها السابق ، كلما راودتها فكرة الزواج .

غمغمت فى حزن :

ـ هل تعتقدين ذلك ؟

هزّت كتفيها ، وأجابت :

ـ ربما كنت مخطئة .

لم أستطع الاقتناع برأى (لبنى) ..

كنت أعلـم أنه على الرغم من بساطتك ومرحـك ، إلا أنك أقوى من أن تصابى بعقدة نفسية ..

كنت أظن ذلك ..

عدت أفتح نافذتى ، متلمِّساً أية أخبار عنك ..

يوم كامل لم تفتح فيه نافذة حجرتك ..

يوم كامل تعذَّبت أنا فيه كثيراً ..

نقلت مجلسى إلى نافذة الرّدهة ، وجلست هناك ساعة كاملة ، أنتظر رؤيتك ، ولكننى لم أفلح ..

كنت أرى والدتك وهى ترتب المنزل ، وتتحرّك فى نشاط ، ولكننى لم أرَ أثراً لك ..

لم أشعر إلا ووالدتى تربّت على كتفى ، وتقول فى حنان :

— ماذا تريد منها يا ولدى ؟

انتفض جسدى وأنا أقول فى ذعر :

— ماذا تقصدين يا أماه ؟

جذبت أمى مقعداً ، وجلست أمامى ، وواجهتنى بنظراتها ، التى يطل منها الحزن والحنان ..

لم أستطع مواجهة عينيها ، فأشحت بوجهى ، وغمغمت :

— ماذا تعنين يا أمى ؟

أجابتنى فى هدوء :

— (لينا) .

عاد جسدى ينتفض ، وأنا أحدّق فى عينيها بدهشة ، فاستطردت فى حنان :

— هل كنت تظن أننى لم ألحظ اهتمامك بها ؟..

أظننت أننى لم أنتبه إلى حيرتك وعذابك ، وجلوسك الطويل أمام النافذة ، منذ انتقلت عائلتها إلى هنا ؟

أطرقت برأسى مغمغماً :

— أماه .

عادت تقول فى حنان :

— أنا أيضاً أسمع أحاديثهم من نافذة حجرة نومى المجاورة لك ، إن هذا الشارع الضيق ، الذى تطل عليه نوافذ حجرات النوم ، يجبر كل إنسان على مشاركة جاره خصوصياته ..

انحدرت من عينى دمعة ، وأنا أقول :

— ماذا أفعل يا أماه ؟

أجابتنى ، وقد شاركتنى عيناها الدمع :

— ليتنى أعلم يا ولدى .

ثم استطردت ، وهى تمسح دموعى فى حنان :

— من العسير أن تخفى مشاعرك عن أمك يا (نادر) ، لقد رقص قلبى طرباً ، حينما شعرت بحبك لها ، وبكى

حزناً أمام عجزك عن الزواج منها ، ولكننى كتمت عنك مشاعرى ، حتى لا أزيد من آلامك .

صمت كلانا لحظة ، ثم استطردت أمى :

- كنت أعلم أن ظروفنا المادية تحول بينك وبينها ، ولم أكن أجد سبيلاً لمواجهة هذه العقبة ، فلزمت الصمت ، ولكننى فى الوقت نفسه أخذت أدخر قروشاً قليلة ، وكأننى آمل يوماً أن أعاونك على الزواج .

احتويت كفّ والدتى فى يدى ، وقبلتها فى حبٍّ ، وهى تتابع :

- لم تكن تلك القروش بقادرة على صنع المبلغ الذى يكفى ذلك ، ولكننى كنت أجد سعادتى فى المحاولة ، إلا أن القدر لم يمهلنى .. جاء زواج (لينا) مباغتاً لك ولى فى الوقت ذاته ، ولكننى فى هذه المرة أيضاً كتمت مشاعرى.

عادت الدموع تسيل من عينيها ، وهى تقول :

- كنت أتظاهر أمامك بعدم الفهم ، وأقضى ليلى كله باكية من أجلك ، كنت أريدك أن تجتاز هذه الصدمة قويًّا ، كما كنت دائماً .. لقد حاولت حتى أن أقنعك

بحضور حفل زفافها ، عسى أن تتمكن من مواجهة الأمر فى شجاعة ، وتحطيم بقايا الحب فى قلبك .. ولكن حبك كان أقوى .. ظللت على حبها بنفس القوة ، وكأنك ترفض الحياة من دونها .

ابتسمت فى شحوب ، وتابعت :

- ومنحك الله (سبحانه وتعالى) المال ، بعد زواجها بيوم واحد ، وفرحت أنا من أجلك .. كنت أظن المال سيشغلك عنها ، ولكنك لم تفعل .. كان حبها قد وقر فى قلبك ، وتغلغل فى أعماقك حتى النخاع ، ثم ....

بترت عبارتها فجأة ، وظهر الألم فى ملامحها ..

كنت أعلم أنها تسترجع فى هذه اللحظة ذكرى إصابتى بالشلل ..

كنت أعلم كم يؤلمها ذلك ، فقلت وأنا أجبر شفتى على الابتسام :

- كم أنت عظيمة يا أماه .

تهللت أساريرها لهذا الإطراء ، وجففت دموعها بظهر كفها ، وهى تقول :

– إننى أفهمك جيداً يا ولدى .

عدت أنحنى وأقبّل كفها فى امتنان ، وأنا أقول :

– أنت تفهميننى دائماً يا أماه ، فى طفولتى كنت تعرفين ما أريده بمجرد أن نتبادل نظرة واحدة .

تمتمت أمى فى حنان :

– كل الأمهات هكذا يا ولدى .. إنه قلب الأم .

ثم نهضت وربّتت على رأسى فى حنان ..

كنت أظن حديثها قد انتهى ، عندما فاجأتنى بقولها :

– هل تريد أن تتزوّجها يا (نادر) ؟

أحنيت رأسى ، وغمغمت وأنا أشير إلى مقعدى المتحرّك :

– لم يعد باستطاعتى ذلك يا أماه .

هتفت أمى فى حماس :

– هذا يتوقف على رأيها هى .

ابتسمت فى يأس وألم ..

كل الأمهات ينظرن إلى أبنائهن ، وكأنهم أعظم مخلوقات الله (عزّ وجلّ) ..

لم تخلق بعد الأم التى ترى فى ابنها عيباً واحداً ..

كنت واثقاً أن أمى لا ترى مقعدى المتحرّك ..

لا ترى عجزى ..

ما زلت بالنسبة إليها أعظم ابن فى الوجود ..

ما زالت تتصوّر أن أجمل مخلوقة فى الكون سترقص طرباً ، إذا ما طلبت الزواج منها .

ولكننى أعرف نفسى ..

أنا مجرّد شخص قعيد عاجز ..

لا توجد فتاة واحدة ، فى الكون كله ، ترضى الارتباط بشخص مثلى ..

أنا أيضاً أرفض مثل هذا الارتباط ..

أرفض أن أحكم على فتاة بريئة ، بمعايشة مشلول مثلى ..

إننى أشفق على شبابها ..

على جمالها ومرحها ..

أشفق على أية فتاة ، من أن تتحوّل إلى ممرّضة لا زوجة ..

فما بالك بك أنت ؟.

إننى أراك دائماً زهرة يانعة فى بستان الحياة ..

زهرة ذاقت عذاب الحرمان من ماء الحنان والحبّ ، وأنا أكره أن أصبح الصحراء القاحلة ، التى تذبل فيهـا هـذه الزهرة ..

ليتنى أستطيع أن أرويك بحنانى ..

ليتنى أقدر على حمايتك ..

كل ما أستطيعه هو أن أدعو لك بالسعادة والهناءة ..

استبطأت أمى جوابى ، فعادت تقول :

– لو أنك ترغب فى ذلك، فأنا مستعدة لطلب يدها.

هتفت فى جزع ، واستنكار :

– كلاً يا أماه .. سيجعلها هذا تكره الزواج أكثر .

ارتفع حاجبا والدتى فى دهشة ، فقلت مفسراً :

– سيجعلها مطلبك هذا تظن أنها لم تعـد تصلح لسواى .

هتفت والدتى فى استنكار :

– وماذا يعيبك أنت ؟

قلت فى ألم :

– كونى واقعية يا أمى .. أنا إنسان عاجز ، و (لينا) تستحق رجلا قويًّا فتيًّا .

ظهر الذعر على وجه أمى ، وكأننى فاجأتها بعجزى ، ثم قالت :

– دعها تعرف أنك تحبها على الأقل .

كان هـذا آخر ما أرغب فى فعـله ، فصرخت كالمجنون :

– كلاً .. كلاً .

ثم أردفت فى يأس :

– يكفى أن يتعذّب قلب واحد يا أماه .

* * *



١٣ ـ لماذا اذن ؟

حبيبتى (لينا) ..

لست أدرى إذا كنت ستصلين إلى هذه الفقرة ، من رسالتى الطويلة ، أم لا ..

ربما تمزّقين رسالتى منذ البداية ..

منذ تقع عيناك على كلمة حبيبتى ، التى أستهل بها حديثى ..

أو ربما تقرئين بضع صفحات ، ثم تشعرين بالملل ، فتلقين رسالتى بعيداً ..

الاحتمال الأضعف ، هو أن تواصلى القراءة إلى النهاية ..

لو أنك فعلت ، فلا ريب أن الحيرة قد ملأت نفسك عند هذا الجزء من خطابى ..

ستتساءلين : لماذا أرسل لك رسالتى هذه ، ما دمت مصرًّا على ألا تعلمى بحبى لك ..

لقد كان هذا رأيى حقًّا يا حبيبتى ..

كنت أرى أنه من الخطإ أن تعلمى بحبى لك ..

حتى جاء أمس ..

أمسِ فقط كنت أجلس أمام نافذتك ، عندما رأيتك تدخلين إلى حجرتك ، برفقة شقيقتك ..

لقد اختلج قلبى ــ حينئذ ــ مع مرآك ، كأنما أراك لأول مرّة ..

كان هذا يحدث لى فى كل مرّة ..

ولأول مرّة فى حياتى أنتبه إلى ملامح شقيقتك ..

أنتما فى الواقع لا تتشابهان كثيراً فى الظاهر ، ولكنها تبدو رقيقة مثلك تماماً ..

كنت أراقبك فى شغف ، عندما سألتك شقيقتك :

ــ لماذا ترفضين الزواج يا (لينا) ؟.. هل تظنين حياتك قد انتهت لفشل زواجك الأول ؟

كان اليأس واضحاً فى ملامحك وصوتك ، وأنت تقولين :

ــ أنا مطلقة يا (إيمان) .. هل نسيت ؟

سألتك شقيقتك فى دهشة :

ــ وماذا فى ذلك ؟.. عشرات من المطلقات يتزوّجن مرّة ثانية .

قلت أنت فى ألم :

– إلا أنا .

عادت شقيقتك تهتف فى دهشة :

– ولماذا ؟

أجبتها فى صوت ، انفطر له قلبى حزناً :

– لابد لى أن أفهم وضعى جيداً يا (إيمان) ، فما من شاب يرضى الزواج من مطلقة ، إلا إذا كان يريد الإفادة من أثاثها الموجود فعلا ، أو شىء من هذا القبيل .

صاحت أختك فى استنكار :

– هذا غير صحيح .. أنت نفسك تعلمين ذلك ، إن الشاب الذى تقدم لك لم يطلب سواك ، كلنا كنا نراه شاباً ممتازاً .

قلت أنت فى انكسار :

– لهذا رفضته .

انتابتنا الدهشة معاً ، أنا وشقيقتك ، وسألتك هى :

– ماذا يعنى هذا ؟

أجبتها أنت فى مرارة :

– لقد أشفقت عليه ، من أن يقول عنه الناس : إنه تزوَّج من مطلقة .

صاحت أختك :

– يا له من تفكير متطرف ! !

كانت لهجتك تبدو ساخرة فى مرارة ، وأنت تقولين :

– يا للتناقض فى آراء الناس ! ! لقد مزَّقتمونى بقولكم إن الناس تنظر إلى المطلقة دائماً ، نظرة تختلف عن نظرتهم لفتاة عادية ، وعندما أومن أنا برأيكم تعودون لمحاولة إقناعى بأن الأمر لا يختلف .

قالت شقيقتك ، وقد زعزع منطقك حدَّتها كثيراً :

– لقد وافق على زواجك وهو يعلم ذلك .

هززت كتفيك ، وقلت :

– سيعايرنى به ، عند أول شجار بيننا .

غمغمت أختك فى دهشة :

– يعايرك ؟. إنه شاب مهذَّب و .....

قاطعتها أنت فى حزم :

ـ يكفى أن أتصوّر أنا أنه سيفعل .

صمت كلاكما لحظة ، ثم قالت أختك :

ـ وهل ستقضين عمرك كله هكذا ؟

سمعت لهجتك ، التى تقطر مرارة ، وأنت تقولين :

ـ هـذا قدرى .

عند هـذه العبـارة بالذات ، راودتنى فكرة هـذا الخطـاب ..

كنت أشعر بآلام لا حصر لها ، وبحزن لا قرار له ..

كنت أكره أن أراك تتعذبين على هذا النحو ..

كان ينبغى أن تعلمى أنه هنـاك ، فى هـذا العالم ، من لا يرى فيما أصابك عيب أو عار ..

كنت أريدك أن تعلمى ، أنه هناك من لا يزال يراك زهرة يانعة ، لا تذبل ، ولا يجفّ رحيقها أبداً ..

أردتك أن تعلمى أننى أحبك ..

كنت ، وما زلت ، وسأظل أحبك ..

أحببتك وأنا قوىٌّ معافى ..

أحببتك وأنا عاجز قعيد ..

أنت دائماً حلم حياتى ، ومنتهى آمالى ..

لست أطلب منك الزواج برسالتى هذه ..

لست أسعى لنيل اهتمامك ..

كل ما أريده هو أن أنزعك من حياة الألم هذه ..

أن أنتشلك من بئر اليأس العميقة ..

لست أنتظر جواباً لرسالتى يا حبيبتى ..

كل ما أرجوه أن تقرئيها ..

اقرئيها ثم مزّقيها ..

واعلمى أننى سأظـــل ، حتى آخر نفس يتردد فى أعماق ، أدعو لك بالسعادة والهناءة ..

اعلمى أننى سأظل أحبك ، ما دامت فى قلبى نبضة واحـدة .

أحبك ..

(نادر فهمى)

* * *

١٤ ـ الخطأ ..

حبيبي (نادر) ..

هل أصابك هذا اللقب بالذهول ؟..

هل ارتجفت أصابعك الممسكة بخطابي هذا ، وأنت تقرأ أول كلمة فيه ؟..

أراهن أنك قد فعلت ..

أنا أيضاً لم أكن أتوقع أنك تحمل فى قلبك كل هذا الحبّ لى ..

ولكنك أخطأت ..

كلانا أخطأ فى حق الآخر ..

أخطأت فى البداية ، حينما لم تنتبه إلى أن مرآة حجرتى المواجهة للنافذة ، كانت تعكس دائماً صورتك ، وأنت تنظر إلى نافذتى فى حبٍّ ..

أنا أيضاً أحببتك ..

أحببتك منذ رأيتك تسير فى شارعنا ، دون أن تحاول مغازلتى كما يفعل الآخرون ..

علمت ـ حينئذ ـ أنك تختلف عنهم ..

كنت صورة لفارس الأحلام ، الذى راود خيالى منذ مراهقتى ..

ولكننى خشيت أن أصرّح لك بهذا الحبّ ..

التقاليد فى مجتمعنا تمنع الفتاة من التصريح بحبها ..

التقاليد ، وشهرتك الرياضية ..

كنت أخشى أن تظننى واحدة من المتهافتات على المشاهير ..

كنت أحبك كما تحبنى ..

فى صمت ..

انتظرت طويلا أن تتخذ أنت خطوة حاسمة ، فتطلب يدى للزواج ..

ولكنك لم تفعل ..

لم تفعل ؛ لأنك أخطأت ..

تصوَّرت أن الفارق المادىّ بين عائلتينا سيحُول بينى وبينك ..

أخطأت عندما تصوَّرت أننى أزن الأمور بمثل هذه النظرة المادية ..

ألا تعلم أننى كنت سأطير فرحاً ، لو أنك فعلت ؟..

المال يا حبيبى أمر عارض ، يأتى ويزول ..

نحن نصنعه ، ولكنه لا يصنعنا ..

ليتنى عرفت أن سيارتى الصغيرة ، هى التى كانت تحُول بيننا ..

ليتنى عرفت ، فتخلصت منها ، حتى أحظى بك ..

لقد انتظرت خطوتك طويلاً ، كما تقضى التقاليد ، ولكنك لم تقدم عليها ..

وهنا أخطأت أنا ..

أخطأت بقبولى الزواج من شاب لا أعرفه جيداً ، فراراً من حبك ، من اليأس الذى أصابنى ..

تقول إننى كنت سعيدة ، وأنا أتنزّه معه .. وأقول أنا إننى كنت أضع قناعاً من السعادة فقط ..

لقد تزوّجت وأنا لا أعرف عن زوجى إلا أقل القليل ..

لقد خدعنى هو بأسلوبه الزائف أيضاً ..

ودفعت ثمن خطئى مرّتين ..

مرّة بحياتى معه ، ومرّة بعذابى فى الطلاق منه ..

هل تعلم أننى بحثت عنك طويلاً فى حفل زفاف ؟..

عدم حضورك الحفل أكد لى أنك ما زلت تحبنى ..

ولكننى كنت قد أصبحت زوجة ، والزوجة المخلصة لا تفكر فى رجل آخر غير زوجها ..

لم أعد للتفكير فيك إلا بعد عودتى للمنزل ، فراراً من زوجى ..

كنت يومها بائسة ، يائسة ، ورأيت صورتك المنعكسة فى المرآة ، وأنت تنظر إلىّ فى حبٍّ ..

لقد خفق قلبى يومها ، ولكننى حاولت منعه ؛ لأننى كنت زوجة ..

كتمت حبك فى قلبى ، كما فعلت أنت ..

ولكنك عدت تحتل عقلى ، كفارس لأحلامى ..

هل تظن أننى لم أرفع عينى إليك مرّة واحدة كما تظن ؟..

لقد فعلت ذلك عشرات المرّات ، دون أن تشعر أنت ..

كلما رأيت نافذة حجرتك مفتوحة ، كنت أتظاهر بتصفيف شعرى ، أمام المرآة ..

وكنت أراك هناك ..

وفى الأسبوع الذى تلا عودتى إلى المنزل ، افتقدتك كثيراً ..

كانت نافذة حجرتك دائماً مغلقة ..

ثم علمت بخبر إصابتك ..

هل تصدّقنى لو قلت لك إننى قضيت ليلة كاملة أبكى من أجلك ؟..

كم أردت أن أهرع إليـك ، وأركع تحت قدميـك المعطوبتين ، أبللهما بدموع حزنى ..

كم تمنيت لو كنت إلى جوارك فى محنتك ..

ولكننى كنت زوجة ..

هل تذكر ذلك اليوم، الذى صفعنى فيه زوجى أمام النافذة ؟..

لقد سمعت صوت صرختك الهلعة يمتزج بصراخى ..

هذا هو الشيء الوحيد ، الذى جعلنى أحتمل صفعاته، وسبابه ..

كنت أجد فى مشاركتك لى آلامى سلوى ، انتزعت من قلبى اليأس ..

فى لمحة خاطفة ، رأيت وجهك الشاحب فى المرآة ..

رأيت الحبّ والجزع فى عينيك ، فتحملت صفعات زوجى ..

شعرت - يومئذ - أن حبك يغلفنى بغلاف من الحنان والقوة ..

غلاف تتحطم فوقه كل الضربات ..

ولقـد رأيتك أيضاً ، وأنت تفحص ذلك المسدس القديم ، وتحشوه بالرّصاص ..

امتلأ قلبى يومها بالذعر ..

كنت أخاف أن تخطئ ..

أصدقك القول إننى تصوّرتك تزمع الانتحار ..

مشاعر عجيبة تلك التى اجتاحتنى ، عنـدما رأيتك تصوّب مسدسك إلى زوجى وهو يغادر منزلنا ..

مزيج من الخوف ، والذعر ، والفخر ، والسعادة ..

كنت أخاف أن تقتله ، فتقضى بذلك على طهـارة نفسك ..

كان الذعر يتملّكنى لمجرّد تفكيرك فى القتل ..

وكانت نفسى تمتلئ بالفخر والسعادة ، لأن فارس أحلامى يحاول إنقاذى ، وحمايتى ..

مشاعر عجيبة متناقضة ، اجتاحت كلهـا نفسى فى لحظة واحدة ..

ثم رأيتك تنزلق من فوق مقعدك المتحرك ..

بكيت لحظات حزناً على ما أصابك ، ثم لم ألبث أن شعرت بالفرح ..

نعم يا حبيبى .. الفرح ..

فرحت ؛ لأنك لن ترتكب هذه الجريمة الشنعاء ..

فقتل النفس – أى نفس – أمر مثير للذعر والألم ..

فرحت ؛ لأن خطتك قد فشلت، وأنك ستبقى – كما أنت – مهذباً ، طاهراً ..

أخطأت أيضاً ، حينما تصوَّرت أن عجزك لن يثير فى نفسى سوى الشفقة ..

أخطأت يا حبيبى ، فعجزك يثير فى نفسى الفخر ..

مئات هم من يصابون بالعجز ، ولكن قلائل هم من يواصلون حياتهم من بعده ..

لو أن رجلاً آخر أصابه ما أصابك ، لألقى بقلمه ، وعاش حياته يائساً ..

أما أنت فقد واصلت صعودك وشهرتك ..

كنت أقرأ كل كلمة تكتبها فى الصحف ، على الرغم من أننى لم أكن يوماً ما من هواة الرياضة ..

كنت أقرأ وأشعر بالفخر ..

أشعر بالفخر ؛ لأن فارس أحلامى لم يستسلم ..

لم تهزمه ضربات القدر ..

لم ينهر أمام الصعاب ..

حقًّا كنت أشعر بالفخر ..

ثم كانت معركتى مع زوجى من أجل الطلاق ..

كانت صلابتك هى مثلى الأعلى ، وأنا أخوض هذه المعركة ..

وهذه نقطة أخرى نتفق فيها معاً ..

كلانا كان يكره زوجى ، ويتمنى الخلاص منه ..

ولقد دفعت أنا ثمناً غالياً ، حتى أمكننى ذلك ..

تحرَّرت من زوجى ، أو كما قلت أنت : حطمت قيودى ، ثم انتظرتك ..

كنت أتصوَّر أنك ستصارحنى بحبك فور ذلك ، ولكنك لم تفعل ..

تركتنى أعيش جحيم المطلقات ..

وهذا هو خطؤك الثالث ..

فى كل خطإ من أخطائك كنت تظلمنى ..

فى المرّة الأولى ظلمتنى ؛ لأنك كنت تظننى سأرفض الزواج منك ؛ لأنك فقير ..

وفى المرّة الثانية ظلمتنى ؛ لأنك تصوّرتنى إنسانة ، لا تربطك بها سوى الشفقة ..

وفى المرّة الثالثة ظلمتنى ، حينما تصوّرت أنك لا تستحقنى ..

لماذا منحت نفسك حق تقرير انفعالاتى ، وآرائى ؟..

لماذا لم تحاول أن تسألنى ؟..

ليتك فعلت ..

أريد أن أطلب منك أيضاً ، ألا تتصوّر نفسك المسئول عن كل ما حدث ..

صحيح أنك لم تتقدم لطلب الزواج منى ، ولكننى وافقت على (محمد) بملء إرادتى ..

لا تقل ليتنى فعلت ..

فهذا قدرنا ..

قدرى أن أتزوّج (محمد) ، وأن أتعذّب ..

وقدرك أن تصاب بالعجز ..

ترى.. هل يحكمنا القدر حقًّا يا حبيبى؟ أم أننا نصنع قدرنا بأنفسنا ؟..

لو أنك أردت رأيى ، فأنا أظن حياتنا مزيجاً من هذا وذاك ..

إننى أظن أن القدر يحكمنا حقًّا ، ولكن بإرادتنا ..

نحن نعاونه بتراخينا ، وتخاذلنا على أن يفرض سيطرته علينا ..

يقول البعض إن تحدّى القدر ، هو فى ذاته قدر ..

ولكننى لست أفهم ذلك ، كما أننى لا أميل للأمور الفلسفية المحضة ..

هل تعلم يا حبيبى ما أكبر خطإ ارتكبته أنت ؟..

إنه هذا الخطاب ..

أخطأت ؛ لأنك لم ترسل لى مثله ، قبل زواجى ..

لقد أخطأت فى حقى ثلاث مرات ، وأنا أطالبك بالتعويض ..

تعويض مادىّ ..

هل تعلم ما هو التعويض المادىّ الذى أطلبه ؟..

إنه أنت .

* * *

١٥ ـ رسالة أمل ..

حبيبي (نادر) ..

لا يمكنك أن تتصوَّر مدى سعادتى وفرحى ، عندما حضرت أختك (لبنى) إلى منزلنا ، وأخبرتنى أنها تحمل لى رسالة منك ..

لا ريب أنها قد لاحظت انفعالى ، ولكنها لم تستطع فهمه ، أو استيعابه ..

كانت سعادتى ؛ لأنك قرَّرت أخيراً ، القيام بخطوة إيجابية ..

كان فرحى ؛ لأنك أخيراً ستبثنى حبك .

ولكننى لم أكد أقرأ خطابك ، حتى حزنت ..

حزنت ؛ لأنك لم تتصوَّر أننى سأقبلك بعجزك ..

من حسن الحظ أنك ذكرت التشـابه بينك وبـين (أبى العلاء المعرى)، فأنا أعشق (أبا العلاء) منذ حداثتى ..

أعشقه ؛ لأننى أراه صورة للصمود وتحدِّى الأقدار ..

صحيح أن كتاباته تميزت بالتشاؤم ، ولكنه ظل يكتب حتى آخر لحظة فى حياته ..

وأنا أحب الرجال الذين يتميزون بالصلابة ..

ثم إننى قرأت أيضاً قصة (حذار من الشفقة) هذه ، ولست أجد أى تشابه بينها وبين قصة حياتك ..

صحيح أن بطلة القصة كانت مشلولة ، ولكنها لم تكن صادقة ، أو مخلصة مع الرجل الذى أحبته ..

لقد خدعته عندما أخفت عنه عجزها ..

ثم ما أدراك أنه لم يكن يقصد ما يعنيه حقًّا ، من أمر المقعدين ؟..

ألا يحتمل أنه يقول لها هذا ، ليمدح حيويتها ، وهو يظنها سليمة معافاة ؟..

وحتى لو فرضنا أنه كان يقصد هذا حقًّا .. فماذا يعنينا ؟..

إن بطلى قصة (حذار من الشفقة)، ما هما إلا شخصان وهميَّان ، أنتجهما خيال مؤلف القصة ، وهو يحاول أن يستدر من عيوننا الدموع بحوارهما ومواقفهما ..

ثم إن هذه القصة ليست قرآناً ، أو إنجيلاً نستشهد به..

إنها مجرَّد قصة ..

أما نحن ، فحقيقة ..
وشتان بين الحقيقة والخيال ..

ترى .. هل أقنعك منطق هذه المرّة ؟..

هل تعلم أن هذه هى أول رسالة حبٍّ أكتبها فى حياتى ؟..

ولكننى لم أتردّد لحظة ، وأنا أكتب لك ..

أى شخص غيرك كان سيظن أننى فتاة جريئة ، خاصة وأنا مطلقة ..

ولكنك تختلف ..

أنت إنسان كبير القلب ، متفتح العقل ..

ثم إنك تحبنى ..

والحبّ يا حبيبى شعور جميل رقيق ، يبعث فى النفس قوّة وصلابة ..

لقد أرسلت لى رسالتك ؛ لأنك تحبنى ..

أنا أيضاً أرسلت لك خطابى ؛ لأننى أحبك ..

ولكن رسالتك كانت رسالة حبٍّ يائس ..

أما رسالتى فهى مفعمة بالأمل ..

هل تعلم لماذا ؟..

لأننى فعلت ما لم تفعله أنت ..

لقد أهملت أنت ذلك الخبر الصغير ، عن فريق الأطباء المصريين ، الذين نجحوا فى التوصل إلى علاج لحالة مماثلة لحالتك ..

ولكننى لم أهمله ..

لقد جذب هذا الخبر اهتمامى بشكل كبير ..

فى الصباح التالى مباشرة، ذهبت إلى المستشفى ، الذى يضم فريق الأطباء هذا ، وشرحت لهم حالتك ..

هل تصدّق أنهم كلهم كانوا يعرفونك ؟..

لقد أخبرونى فى حماس، أنهم يعجبون جداً بكتاباتك ، ومقالاتك الرياضية، بل إن أحدهم أقسم أن حالتك بالذات، هى التى دفعتهم للبحث عن العلاج ..

وأنا أثق فى الأطباء المصريين ..

كل مشكلتى كانت فى كيفية إقناعك بالاستسلام لعلاجهم ..

فى محو اليأس من نفسك ..

فأنا شخصيًّا متفائلة ..

أنا واثقة من أنك ستشفى ..

لن يمضىَ وقت طويل، حتى تعود لتسير على قدميك مختالاً كذى قبل ..

ولكننى فى هذه المرة سأكون متعلقة فى ذراعك ..

سأكون أكثر منك فخراً ..

ولكننى لن أتخلى عن مقعدك المتحرِّك أبداً ..

سأختار له أجمل ركن فى عشنا مستقبلاً ..

سأشير إليه أمام أى ضيف يزورنا ، وأقول فى فخر :

ـ لقد كان هذا مقعد حبيبى ..

سأقولها فى فخر ؛ لأن هذا المقعد هو ـ فى نظرى ـ رمز إصرارك وصمودك ..

سأحب هذا المقعد ، وأعنى به ، حتى يظل دائماً أنيقاً لامعاً ..

سأحبه لأنك كنت تجلس فوقه ، وأنت تكتب لى أول رسالة حبّ ..

رسالتك أيضاً سأحتفظ بها دائماً ..

سنقرؤها معاً ، وسنحتفل بتاريخ كتابتك لها ..

سيكون هذا عيد حبنا ..

أصارحك القول أيضاً ، أن هذه هى أول رسالة حبّ أتلقاها فى حياتى ..

وستكون الأخيرة ..

فأنا لن أقبل منك أى رسائل بعد الآن ..

كل ما تريد أن تقوله ، عليك أن تهمس به فى أذنى بعد الآن ..

فى منزلنا ..

هل تعلم لماذا رفضت الشاب ، الذى طلب الزواج منى منذ أيام ؟..

لقد فعلت ذلك من أجلك ..

كان هناك هاتف فى أعماق ، يؤكد لى أننا سنلتق ..

أراهن أن هذا التفسير لم يخطر ببالك قط ..

فخطابك يا حبيبى يمتلئ بعدم الثقة ..

وأنا لا أحب اليأس ..

لقد أخطأت أيضاً عندما تصوَّرت أن حديثى الأخير ، مع شقيقتى (إيمان) ، كان يحمل نبرات اليأس ..

أخطأت ؛ لأنك لا تعلم الكثير عن طبيعتنا نحن النساء ..

إن التقاليد التى فرضها علينا المجتمع ، نحن النساء ، تمنعنا دائماً من التصريح بعواطفنا ، ومشاعرنا ؛ لذا فنحن نلجأ دائماً إلى المناورة ..

وحديثى مع شقيقتى كان مناورة ..

لقد لمحتك فى المرآة ، وأنت تجلس أمام النافذة ، وأردت أن أدفعك إلى اتخاذ خطوة إيجابية ، فتظاهرت باليأس فى حديثى مع (إيمان) ..

إنك طبعاً لم تتصوَّر هذا ..

ولكننى نجحت ..

حديثى هذا هو الذى دفعك إلى اتخاذ تلك الخطوة ..

هو الذى حملك على كتابة خطاب الحبّ هذا ..

هل رأيت كيف أننا ماهرات ؟..

هذا خطؤكم دائماً أيها الرجال ..

إنكم تتصوَّرون دائماً ، أنكم أنتم الذين تمسكون دائماً بكل الخيوط ..

تصوُّركم هذا هو الذى يؤمن لنا النصر ..

يظل الواحد منكم يخطط ، ويدبر لإقناع فتاة ما بالزواج منه ، وهو يظن نفسه صياداً ماهراً ، دون أن يدرى أنه فى الحقيقة صيد ..

إنها لعبة قديمة قدم الدهر ..

حتى أمنا (حواء) لم تحرم منها ، على الرغم من أنها كانت الأنثى الوحيدة فى العالم .. وكان (آدم) هو الرجل الوحيد ..

لقد دفعته إلى قطف الثمرة ، وهو يظن أنه يتخذ قراره بنفسه ..

وأورثتنا (حواء) ضعفها الجسدى ، ومهارتها العقلية ..

لا تتصوَّر أنه توجد امرأة واحدة فى العالم ، لا تمتلك هذا النوع من الذكاء ..

الذكاء الاجتماعى ..

راقب حتى الأطفال الصغار ، وستكتشف أن الطفلة أقدر على نيل ما تطلب من الطفل ..

إنها تستغل كونها أنثى ..

راقب الأطفال ، وستعرف أننى على حقّ ..

هل أحصيت أخطاءك يا حبيبى ؟..
هل كشفت كم تعذبت بلا طائل ؟..
ما رأيك أن نتحدى القدر هذه المرّة ؟..
عليك أنت اتخاذ القرار ..
ولكن لا تتردّد ..
كن واثقاً من مشاعرى نحوك ..
وإذا راودك بعض الشك ، فعليك أن تختبرنى ..
نعم .. إننى أطالبك بإجراء اختبار ..
سأنتظرك غداً فى منزلنا ، فى السادسة مساء ..
سأنتظرك مرتدية أجمل أثوابى ..
وسأطلب من والدى أن ينتظرك أيضاً ..
سأخبره أنك تطلب الزواج منى ..
وأننى موافقة ..
قد يعترض والدى قليلاً ، ولكنه سيوافق ..
أما أمى فهى لن تعترض ..
إنها تعلم أننى أحبك ، وأنك تحبنى ..
وهى إنسانة رائعة ، حينما تعرفها عن قرب ..

كل ما عليك أن تفعله هو أن تأتى إلى منزلنا ، وتطلب يدى من والدى ..
بعدها أكون لك ..
سأنتظرك ، لأننى أحبك ..
وستأتى ، لأنك تحبنى ..
لا تتأخر كثيراً يا حبيبى ، يكفينا ما ضاع من عمرنا ..
إلى أن نلتقى ، لك منى كلمة أخيرة ..
أحبك ..

حبيبتك إلى الأبد
(لينا)

* * *

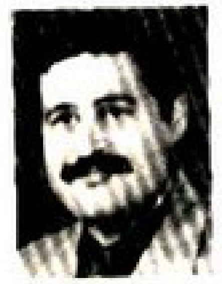
[تمت بحمد الله]



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

المؤلف



د. نبيل فاروق

رسالة حب

إنها رسالة يكتبها الحبُ بحروفه ،
ويخطها (نادر) بقلمه ، يبث فيها حبه
إلى (لينا) ، ويصف فيها مشاعره نحوها ..
كيف يكون وقع الرسالة عليها ؟..
هل سيخفق لها قلبها ، أو تبقى
لـ (نادر) ذكرى الألم بعد أن
كتب رسالة حبّ ؟..



الثمن فى مصر ١٠٠ جـ
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم